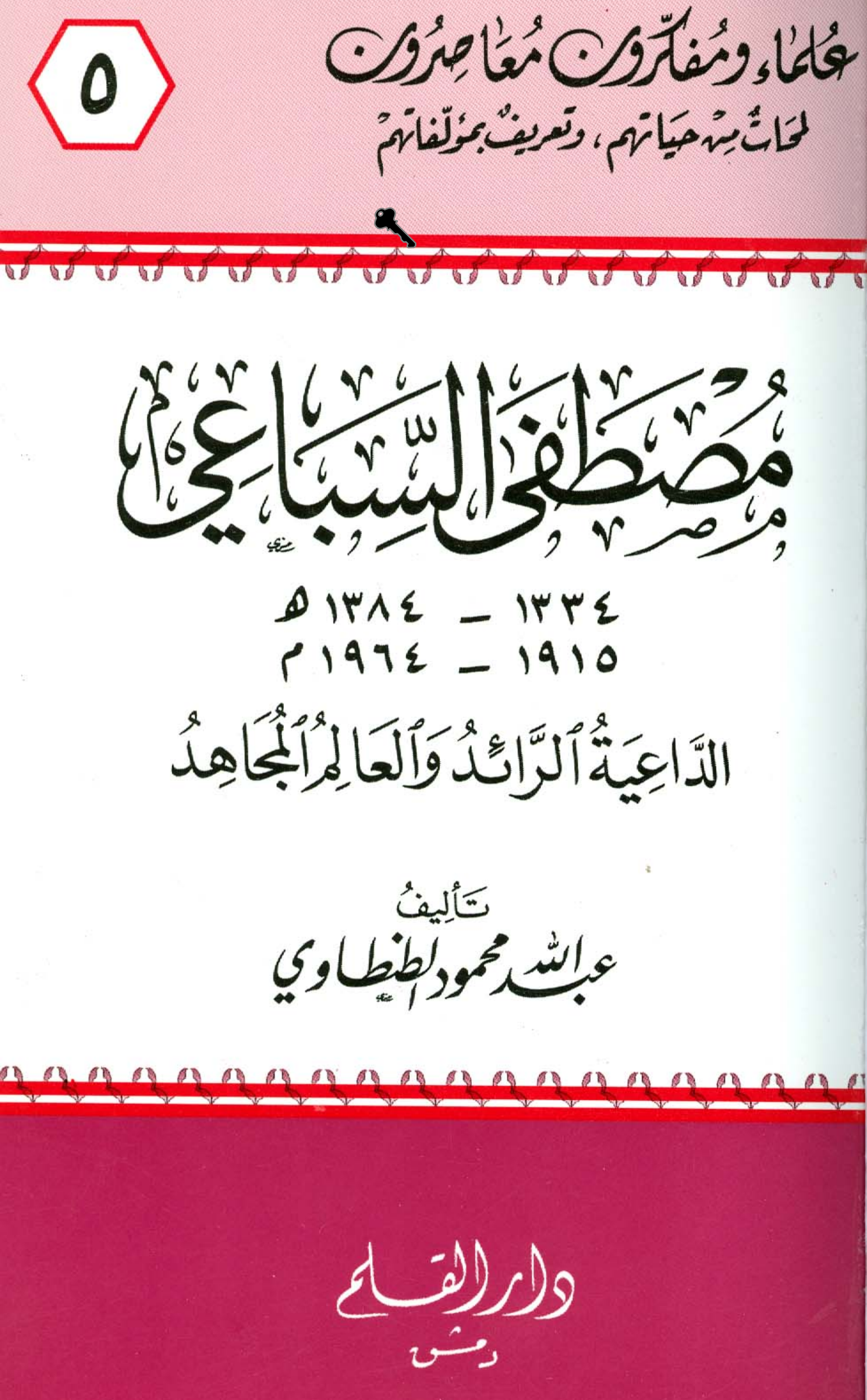

علماء ومفكرون معاصرون
لمحات من حياتهم، وتعريف بمؤلفاتهم
٥
مصطفى السباعي
١٣٣٤ - ١٣٨٤ هـ
١٩١٥ - ١٩٦٤ م
الداعية الرائد والعالم المجاهد
تأليف
عبد الله محمود الطنطاوي
دار القلم
دمشق

علماء ومفكرون معاصرون
لمحات من حياتهم، وتعريف بمؤلفاتهم

٥

# مصطفى السباعي

١٣٣٤ ـ ١٣٨٤ هـ
١٩١٥ ـ ١٩٦٤ م

## الداعية الرائد والعالم المجاهد

تأليف
عبد الله محمود الطنطاوي

دار القلم
دمشق

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م



تُطلب جميع كتبنا من :

دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧

الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦

ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

---

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق

دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥

ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

# مقدمة

هذا كتاب موجز يروي سيرة أستاذنا الكبير مصطفى السباعي، الذي مرَّ بهذه الدنيا، وهذه الأمة، وبهذا الشعب، وبهذه الجماعة، مرور الكرام.

لم يكتب له أن يعيش بيننا طويلاً، فقد توفي وهو دون الخمسين من العمر، ومع ذلك فقد كان لسنواته التي عاشها بيننا دويٌّ كبير، وأثر هائل، ونتائج قيِّمة مباركة، وترك لنا تراثاً فكرياً يذخر بالعلم والمعرفة ويشع بالهدى والنور المبين.

وقد كتبت هذا الكتاب لسلسلة (علماء ومفكرون معاصرون) التي تصدرها (دار القلم) بدمشق، وذلك تلبيةً لطلبٍ من إدارة هذه الدار الزاهرة المتميزة بمنشوراتها القيِّمة.

ويتألف الكتاب من فصلين:

الأول: يتناول حياة السباعي في إيجاز.

والثاني: يتناول عرضاً لكتبه ورسائله العلمية، والفكرية، والأدبية.

ولعلنا، بهذا، نقدّم تعريفاً بهذا العملاق الذي مضى إلى لقاء ربه منذ ثلث قرن، في أوج نضجه الفكري، قبل أن يلقي بما حواه الرأس الكبير إلى الناس، وليست الدّرر التي عرضناها إلا شيئاً يسيراً مما كان يفكر به هذا الرجل العظيم، الذي رحل عن دنيانا وهو يحمل هموم أمّة، ومرارات جماعة، وتطلعات نحو مستقبل رغد، لشعب أبيّ حرّ، تألّب عليه أعداؤه، وتآمر عليه أبناؤه، ليطفئوا شعلة الحرية والكرامة التي أوقدها حادي الركب، وحامل الراية، الرجل الكبير: مصطفى السباعي.

في ٢٤/٩/١٤٢١هـ
١/١/٢٠٠٠م



# الفصل الأول
# لمحات من حياته

- عصره
- حياته
- صفاته وشمائله
- العوامل المؤثرة في تكوينه النفسي والفكري والسياسي
- مواقفه : ( ١ ـ دعوته إلى الحياد بين المعسكرين ٢ ـ موقفه من الشيوعية والاتحاد السوفياتي ٣ ـ موقفه من القضية الفلسطينية ٤ ـ موقفه من الغرب والتغريب ٥ ـ موقفه من القومية العربية ٦ ـ موقفه من المرأة ٧ ـ موقفه من الشيعة ٨ ـ موقفه من الطائفية ٩ ـ موقفه من المعتزلة ١٠ ـ موقفه من الانقلابات العسكرية ١١ ـ موقفه من الاقتصاد ١٢ ـ موقفه من البدع ١٣ ـ موقفه من الفن ).
- السباعي خطيباً
- أبو الفقراء والمساكين
- في البرلمان
- في الصحافة



## لمحات من حياته، وفكره، ومواقفه

**عصره:**

كان ميلاد مصطفى السباعي بُعيد نشوب الحرب العالمية الأولى، وقبيل انهيار الإمبراطورية العثمانية، وتمزيقها شرّ ممزَّق، على أيدي دعاة القومية الطورانية الذين كانت تسيّرهم الدوائر الغربية الاستعمارية من الخارج، ويهود الدونمة والماسونية من الداخل، حتى لا تبقى للمسلمين، مرجعية يرجعون إليها ولا رابطة سياسية تجمعهم، بعد إلغاء خلافتهم، وتمزيق شملهم، ووضعهم تحت الانتداب والحماية والوصاية والاستعمار، كما كان ـ ميلاده ـ قبيل تمزيق البلاد العربية إلى كيانات، وخضوع تلك الكيانات أو الدويلات إلى الاستعمار، فكانت سورية الكبرى ـ بلاد الشام ـ أربع دول، هي: سورية بحدودها الحالية، ولبنان، والأردن وفلسطين، وكانت سورية الصغرى، ولبنان، وبلاد المغرب العربي من نصيب الاستعمار الفرنسي الغاشم، وكانت مصر، والعراق، والأردن، وفلسطين، والسودان من نصيب الاستعمار الإنكليزي، العدو الألدّ للعروبة والإسلام.

وشهد السباعي الفتى سقوط الخلافة العثمانية على أيدي العلمانيين القوميين الطورانيين، وسمع في المسجد الكبير في مدينته (حمص) تنديد أبيه بخطوات مصطفى كمال الذي دعوه (أتاتورك) ذلك الذي ولد في (سلانيك) معقل يهود الدونمة والماسونية، والفكرة القومية الطورانية، وتربى على أيدي هؤلاء الذين دربوه وأهّلوه ليكون صاحب الدور الأكبر في اضطهاد من أحسن إليه من خلفاء بني عثمان، ثم في نشر الفكر القومي، وإلغاء الخلافة، واستبدال

الحروف اللاتينية بالحروف العربية، والعمل على ترجمة القرآن العظيم، ليتلى باللغة التركية، بدلاً من اللغة التي أنزله الله بها، كما فعل بالأذان الذي استبدل كلماته الشرعية الوضيئة، بكلمات تافهات مضحكات مبكيات . .

وشـهد مصطفى السـباعي الفتى آثار الحرب الكونية الأولى على أبنـاء مدينته، وعرف ما كانوا يعانونه من فقر، وجهل، وتخلف في سائر الميادين، وعرف دور الاستعمار الفرنسي فيما يجري لشعبه في سورية، ودور الاستعمار عامة، فيما يجري لأمته العربية، والإسلامية، التي وقعت شعوبها بين براثنه .

وشهد الفتى الثورات المتتالية على الاستعمار في سورية خاصة، وفي سائر أقطار الوطن العربي عامة . . شهد ثورة الغوطة، وثورة الشيخ عز الدين القسـام، وثورة إبراهيم هنانـو، وتحرك العلماء لتثويـر الشعب السـوري على المستعمر المتوحش، وسمع، وربما رأى، الشيخ المجاهد علي الدقر، ومحدّث الشام الشيخ بدر الدين الحسني، وهما يطوفان المدن والقرى السورية، يدعوان إلى مجاهدة الاستعمار، وتقديم العون للمجاهدين الأبرار .

وعرف ما يحاك لفلسطين وما يدبر على أيدي الصهاينة والمتصهينين من الأوروبيين ومن العملاء على حد سواء، وسمع بالثورات الفلسطينية المتعاقبة، وعرف شيئاً من سيرة الشيخ القسام البطل، وسعيد العاص البطل، اللذين غادرا سورية الحبيبة، إلى فلسطين الحبيبة، للدفاع عنها، بعد أن تكشفت المؤامرات عليها، وتدفق اليهود من كل مكان إليها .

وشهد الحرب الكونية الثانية، وما جرته من المآسي والمخازي والكوارث على البشر في كل مكان .

أهوال عاشتها الأمة العربية، أدت بها إلى اضطراب، وجعلتها تعيش حالة مخاض، وخاصة بعد سقوط القسم الأكبر من فلسطين في أيدي اليهود الذين ارتكبوا فيها المجازر، وشردوا مئات الآلاف من الرجال والنساء والأطفال، بمباركة من (الغرب) المتحضر جداً، وبتخاذل عربي، وتآمر رسمي، أجهض

حـركـة الجهـاد الشعبـي الـذي نفـر ذووه للـذبّ عـن الأرض، والشعـب، والمقدسات.

شهد السباعي الشاب الناضج المجاهد هذا، وعرف كثيراً من أسراره، وحاول أن يوقف المد اليهودي الصليبي، والمد الخياني في الانقلابات العسكرية المتعاقبة على سورية، للإجهاز على جيشها الفتي، وللقضاء على روح المقاومة لدى شعبها الحر الأبي ولتمرير المخططات التآمرية على بلاد العرب والمسلمين، ولكن دون جدوى كبيرة في مقاومة شرور العسكر الانقلابيين الذين يعملون بإيحاء من الأجنبي، وربما بأوامر منه، وخاصة أمريكة التي لا تريد بأمتنا إلا الشر، فأضعفت ـ الانقلابات ـ الجيوش العربية، وفرّغتها من خيرة الكفايات العسكرية، وأضرت بالتنمية الاقتصادية، والاجتماعية، والفكرية، وشوهت سمعة العرب والمسـلمين، وكانت من عوامل التخلف، ونشـر الفساد، في سـائر الأجهزة والدواوين الحكومية، وأقامت أنظمة ديكتاتورية مستبدة طاغية، أذلت الشعوب، وامتهنت الكرامات، وعطلت الحريات.

وشـهد السـباعي ظهور الأحزاب العلمانية التي استوردت مبادئها من الغرب ومن الشرق، واكتوى ـ كسائر الأحرار ـ بنيران اليسار الأحمر المستبد الداعي إلى الإلحاد ومحاربة الإسلام، والفضيلة، وقاد موجة التغريب رجال آخرون، رُبُّوا على أعين الاستعمار القديم والحديث، وكانوا مطايا ذلولة إلى تنفيذ مخططات المستعمرين والمبشرين في غزوهم الفكري، ونشر مبادئهم وتعاليمهم الهدامـة في المدارس الأجنبيـة، وفي الأنديـة، ومناهج الأحزاب العلمانية.

وشهد قيام الوحدة بين سورية ومصر، وشهد انفصال سورية عن مصر، ثم شهد ثالثة الأثافي فيما تلا حكم (الانفصال) ـ كما يدعونه ـ وكأنهم قد قضوا على الانفصال، وأعادوا الوحدة ـ الأمل من جديد.

شـهد السباعي الفتى، والسـباعي الشاب الهمام الناضج كل هذا، وأكثـر

منه، فقد عاش عصراً من أحفل العصور العربية بالحوادث الجسام، والثقافات المتباينة، وقد تمثل ذلك العصر، وعرف زمانه حق المعرفة، واستقامت طريقته في معايشته ناسه. . وشارك في صنع بعض الأحداث، وكانت مشاركته تبشر بانبثاق عصر نهوض من عثار طال، وابتعاث من رقود وجمود في الحياة السياسية، والفكرية، والثقافية، والدينية، والاجتماعية، والجهادية.

* * *

## حياته

كان الدكتور الشيخ مصطفى السباعي من كبار الدعاة إلى الله على بصيرة في العصر الحديث، ويأتي بعد الإمام الشهيد حسن البنا في حركة الإخوان المسلمين.

ولد في مدينة حمص في وسط سورية عام١٣٣٤هـ - ١٩١٥م في أسرة كريمة، عرفت بالعلم والفضل والصلاح على مدى قرون من الزمان، أنهى دراسته الأولية والثانوية الشرعية في حمص عام١٩٣٠م وكان الأول على زملائه، ومن المتفوقين طوال مدة دراسته، لما تميز به من نباهة وذكاء وحب للعلم منذ صغره، فقد حفظ القرآن وهو صبي، وتلقى ألوان العلوم العربية والشرعية على يد والده عالم حمص وخطيبها، وعلى أيدي علماء حمص الذين كانوا يفدون إلى بيت أبيه، وكان يحضر مجالسهم أحياناً، كان يصحبه أبوه إلى مجالسه العلمية معهم، ويشهد مناقشاتهم، ويختزن ما يسمع ويرى في نفسه، فقد كان شديد التأثر بتلك المجالس، وبأولئك العلماء الذين كانوا يحدبون عليه، ويهتمون به، ويعطونه ما يسألهم عنه من المسائل العلمية، والأدبية، والاجتماعية، والسياسية، الأمر الذي جعل وعيه أكبر من سنه، فقد كان يعي ما يدور حوله من القضايا، خاصة ما يتعلق منها بالعقيدة والدين والوطن والأمة، ولهذا رأيناه يستنكر البدع والخرافات لدى بعض المتصوفة، كخميس المشايخ، ويؤلف جمعية سرية لمقاومة المدارس الأجنبية التبشيرية التي أنشأها الاستعمار الفرنسي في حمص وبعض المدن السورية، وراحت تبث سمومها في عقول أبناء الأغنياء المنتسبين إليها، وكان يكتب المنشورات السياسية منددا بالاستعمار وأعوانه ليس في سورية وحدها بل تعدى ذلك إلى المغرب العربي، الأمر الذي

دفع السلطات الاستعمارية إلى اعتقاله أول مرة عام١٩٣١م وهو ابن ستة عشر عاماً، بتهمة توزيع منشورات تندد بالاستعمار الفرنسي في بلاد المغرب العربي، ثم أفرجت عنه، نتيجة الهياج الشعبي الذي استنكر اعتقالها إياه، ثم ما لبثت أن اعتقلته ثانية، عام ١٩٣٢م ولبث في السجن ستة أشهر، بتهمة التحريض عليها في خطبه في المسجد الكبير في حمص، عندما كان ينوب عن أبيه في خطبة الجمعة، أو بعد صلاة الجمعة، وفي دروسه في المدرسة التي كان يعلم فيها.

وفي عام١٩٣٣م سافر إلى مصر، والتحق بالأزهر، وانتسب إلى قسم الفقه، ونال الإجازة من كلية أصول الدين بتفوق.

كان السباعي طاقة جبارة، كان وهو تلميذ ابن اثني عشر عاماً يقرأ مجلة (الفتح) القاهرية ويراسل صاحبها محب الدين الخطيب، وعندما صار في القاهرة، بادر إلى الاتصال بعلمائها، وأدبائها، ورجالها، وكان فيمن سعى إليه، صاحب الفتح الكاتب الأديب الثائر، والإمام الشهيد حسن البنا، وتعرف على دعوة الإخوان المسلمين، وانتسب إليها، وصار من أبرز أعضائها، يخطب في مراكزها وشعبها وفروعها، ويشارك في مظاهراتها، ويحضر أحاديث مرشدها، فتزيده توقداً وحماسة، فينشط مع طلاب المعاهد والجامعة، يحرضهم على الإنكليز المحتلين، ويقودهم في المظاهرات، ويخطب فيهم، الأمر الذي جعل الإنكليز المحتلين يعتقلونه عام ١٩٣٤م وعندما أفرجوا عنه، كان قد شحن في المعتقل بوقود جديد، فأعاد الإنكليز اعتقاله مرة أخرى عام ١٩٤١م بتهمة تأليف جمعية سرية لتأييد ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق.

وبعد شهرين من اعتقاله سلمته السلطات البريطانية في مصر إلى السلطات البريطانية المحتلة في فلسطين، وأمضى في معتقلاتها أربعة أشهر عاد بعدها إلى حمص، ليمارس نشاطه السياسي ضد الاستعمار، والدعوي والوطني في صفوف الجماهير، فاعتقلته السلطة الاستعمارية، ثم نقلته إلى بيروت وسجن (الميه وميه) و (قلعة راشيا) بلبنان، وأمضى في الاعتقال ثلاثين شهراً، أشغالاً شاقة، وتعذيباً، وتجويعاً، وهو صابر محتسب، يخفف بابتساماته ودعاباته ودروسه

ونصائحه عن المعتقلين معه، كما شهد بذلك بعض من كانوا معه، وتأثروا به، وملؤوا فراغ السجن بالعلم والعبادة على يديه.

وبعد الإفراج عنه، وعودته إلى مدينته حمص، قاد المظاهرات الحاشدة، وخطب في المتظاهرين، وحرضهم على الثورة المسلحة، وتخليص البلاد من المستعمرين الفرنسيين في سورية، ومن الإنكليز واليهود في فلسطين. ولأنه انقطع عن الدراسة في مصر بسبب إخراج الإنكليز إياه منها، لم يقعد السباعي في بيته عاطلاً عن العمل، بل باشر التدريس في عام ١٩٤٤م، درَّس مادتي اللغة العربية، والتربية الإسلامية في ثانويات حمص، ثم انتقل إلى دمشق، فأسس مع لفيف من إخوانه المربين، المعهد العربي الإسلامي، وكان السباعي أول مدير له، ثم فتحوا لهذا المعهد الذي كان يضم الروضة والابتدائي والإعدادي والثانوي، للذكور وللإناث، كلاً على حدة، فتحوا له فروعاً في عدد من المدن السورية، في درعا، وحمص، وإدلب، وحلب.

وكان السباعي، الطاقة المتفجرة ـ يعمل في أكثر من ميدان من ميادين الحياة الاجتماعية، فأسهم في تأسيس عدة جمعيات خيرية وإسلامية، أسس في حمص (الرابطة الدينية) وفي دمشق (جمعية شباب محمد ﷺ) و(جمعية الشبان المسلمين)..

وبعد عودته من مصر، أسهم مع عدد من إخوانه في تأسيس جماعة الإخوان المسلمين في سورية عام ١٩٤٥م وكان أول مراقب عام لها، فقد انتخبته الهيئة التأسيسية للجماعة مراقباً عاماً لها مدى الحياة، وبايعه الإخوان على ذلك، فقاد الجماعة بحكمة وحنكة، وبذل في سبيلها كل ما يملك من مال وجهد وسهر، وضع برامجها، ونظم صفوفها، وكان قائداً فذّاً في تاريخ القادة والزعماء.

وفي العام نفسه ١٩٤٥م قاد الثورة المسلحة على الاستعمار الفرنسي في مدينته حمص، وقاد المظاهرات الصاخبة فيها، وأطلق الرصاصة الأولى، إيذانا بالكفاح المسلح، حتى يتحقق النصر، ويجلو الاستعمار عن أرض الوطن، وقد تم الجلاء في ١٧/ ٤/ ١٩٤٦م.

وفي عام ١٩٤٦م مثّل هو ونائبه الأستاذ عمر بهاء الدين الأميري، إخوان سورية في الهيئة التأسيسية للجماعة في مصر، وهذه الهيئة هي التي تنتخب مكتب الإرشاد، والمرشد العام للجماعة. وكان الإمام الشهيد قد اقترح على الهيئة التأسيسية التي تقتصر في عضويتها على الإخوان المصريين فقط ـ اقترح عليها ضم السباعي والأميري، فوافقت بالإجماع على ضمهما، وكانا أول من يدخلها من غير الإخوة المصريين.

وفي عام ١٩٤٨م قاد السباعي مجاهدي الإخوان المسلمين السوريين، وشارك بهم في حرب فلسطين، وخاض معهم معارك ضارية في القدس وما حولها، وكان له ولإخوانه شرف الجهاد، والإبقاء على عروبة القدس الشرقية والحفاظ على المسجد الأقصى المبارك.

وفي عام ١٩٤٩م خاض السباعي الانتخابات عن مدينة دمشق، ونال أكثر الأصوات، مع أنه ليس دمشقياً، وكان أحد الأعضاء البارزين في الجمعية التأسيسية، وفي لجنة الدستور التي وضعت أول دستور لسورية المستقلة عام ١٩٥٠م ثم صارت هذه الجمعية برلماناً، وانتخب السباعي نائباً لرئيس البرلمان، وكان من أهم أعضائه، وكان السباعي قد تقدم إلى الناخبين ببرنامجه الانتخابي، بما يمكن تسميته أول برنامج شامل متكامل للإخوان المسلمين في سورية، وفاز السباعي وثلاثة من إخوانه بموجبه في تلك الانتخابات[١]، وكان هذا البرنامج هو نفسه برنامج الجبهة الإسلامية الاشتراكية التي شكّلها وكان لها دورها الكبير في الجمعية التأسيسية ثم في البرلمان.

وفي عام١٩٤٩م نال شهادة الدكتوراه من الأزهر على رسالته المهمة: (السنّة ومكانتها في التشريع الإسلامي) دافع فيها عن السنة النبوية دفاعاً مجيداً قلّ نظيره في كلّ ما كتب في الدفاع عنها، ومدافعة خصومها وأعدائها.

---

(١) محمد جمال باروت وفيصل دراج ـ الأحزاب والحركات والجماعات الإسلامية: ١/ ٢٥٧.

وفي عام ١٩٥٠م عين مدرساً في كلية الحقوق في الجامعة السورية (جامعة دمشق الآن)، لمادتي الأحوال الشخصية، والشريعة، ثم صار رئيساً لقسم الفقه الإسلامي ومذاهبه في الكلية.

وفي ١٦/ ١/ ١٩٥٢م حل الشيشكلي جماعة الإخوان، واعتقل قائدها، ثم نفاه إلى لبنان، وفي لبنان كان للسباعي نشاط كبير أسس فيه للحركة الإسلامية هناك.

وبعد سقوط الشيشكلي في ٢٥/ ١/ ١٩٥٤م عاد السباعي إلى سورية، ليتابع جهاده الدعوي والعلمي والسياسي، ولكنه فوجئ بمؤامرة انشقاقية عليه، ولكنه تغلب عليها، ولكنها تركت فيه جراحاً نفسية دامية لم تزايله حتى وفاته.

وفي عام ١٩٥٥م أسس كلية الشريعة بجامعة دمشق، بعد أن خاض معارك ضارية مع العلمانيين الذين حاولوا الحيلولة دون ذلك، وكان أول عميد لها.

كما كان صاحب مشروع موسوعة الفقه الإسلامي الذي ناضل كثيراً من أجله، وبذل من حُرّ وقته ما لا يعرفه إلا الله سبحانه، وكان رئيساً لها.

وفي ٨/ ٦/ ١٩٥٥م عادت الجماعة إلى العمل قانونياً بقرار ألغى قرار حلها أيام الشيشكلي، وبجهود طيبة بذلها السباعي وإخوانه وأصدقاؤه.

وبعد صدام الجماعة في مصر مع عبد الناصر، تحوَّل التنظيم السوري إلى قاعدة خلفية لحركة الإخوان المسلمين العامة، واستطاع السباعي المتدفق حيوية ونشاطاً، أن يجعل الرأي العام السوري، حكومة وبرلماناً وأحزاباً، مع الإخوان في مصر[1].

وبرز السباعي كأكبر وجه معارض لما سمي بالسيطرة الشيوعية على سورية، أيام حكم التجمع القومي عام ١٩٥٦م.

وفي العام نفسه، أوفدته الجامعة السورية في رحلة علمية إلى ديار الغرب، لزيارة جامعاته، والاطلاع على مناهج الدراسات الإسلامية فيها، فزار تركية،

---

(١) الأحزاب والحركات والجماعات الإسلامية: ١/ ٢٦١.

وإيطالية، وبريطانية، وإيرلندة، وبلجيكة، وهولندة، والدانمارك، والنرويج، والسويد، وفنلندة، وألمانية، والنمسة، وسويسرة، وفرنسة. . وقد أكسبته هذه الرحلات والرحلات الأخرى التي قام بها عام١٩٥٧م إلى موسكو ـ أكسبته عمقاً، واتساعاً وشمولاً، وخبرات علمية، وتربوية، وحكمة عملية ونظرية.

وفي عام ١٩٥٧م رشحته الجماعة للانتخابات التكميلية التي جرت في أيار ١٩٥٧م في دمشق، ضد مرشح التجمع القومي الذي كان يحكم سورية من خلف ستار، وهو البعثي رياض المالكي، وفاز المالكي بأغلبية ضئيلة، برغم التزوير، ورغم دعم عبد الناصر وأجهزته الناشطة في سورية لصالح المالكي، فقد حصل السباعي على (٤٧٪) من الأصوات وكان عبد الناصر قد جنَّد أحد المجرمين لاغتيال السباعي في مطلع عام١٩٥٦م ولكن المحاولة باءت بالفشل، واعترف المجرم بأنه كان هو ورفيقاه مرسلين من النظام الناصري لاغتيال السباعي، وسعيد رمضان. وعبدالحكيم عابدين.

كان الأستاذ حسن الهضيبي ـ المرشد العام للإخوان المسلمين ـ قد شكل مكتباً إدارياً لقيادة الإخوان في البلاد العربية عام ١٩٥٤م وأسند رئاسة المكتب إلى الدكتور السباعي، وقد جدد قادة الإخوان في البلاد العربية، في الدورة الثانية لمؤتمرهم الذي عقد في دمشق من ١ ـ ٨ من آذار ١٩٥٧م ـ جدَّدوا انتخاب السباعي رئيساً لمكتب البلاد العربية.

وبعد عودته من رحلته العلمية إلى الاتحاد السوفياتي عام ١٩٥٧م هجم عليه المرض هجمة عنيفة، شلَّ أكثر من نصفه الأيسر، وأثّر على حركته، ولكنه لم يقعده عن ممارسة نشاطه العلمي والدعوي، بل كانت فترة مرضه من أبرك الأوقات، فقد تفرغ للعلم، وأتحف المكتبة الإسلامية بمجموعة رائعة من المحاضرات والكتب.

وفي شباط ١٩٥٨م أعلن السباعي حلَّ جماعة الإخوان المسلمين في سورية، استجابة للشرط الذي اشترطه عبد الناصر من أجل قيام الوحدة السورية المصرية، بأن تحل الأحزاب والهيئات السورية نفسها.

وفي يوم السبت، في السابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ١٣٨٤هـ الموافق للثالث من شهر تشرين الأول سنة ١٩٦٤م ترجل الفارس المقدام.. رحل الرائد والأب.. رحل القائد التاريخي، ولكنه خلّف جيلاً من الدعاة الذين عاهدوه على متابعة الطريق.. بكاه إخوانه وتلاميذه في كل مكان.. بكته دمشق التي خرجت تودعه إلى مثواه الأخير.. بكته سورية التي هبّ شيبها وشبابها إلى دمشق، عندما علموا بوفاة القائد الأب، ولكن السلطة البعثية الحاكمة حالت دون دخولهم إلى دمشق، والمشاركة في التوديع والتشييع.. ومع كل الإجراءات التي اتخذتها السلطة، كانت للقائد العظيم جنازة ما شهدت دمشق ولا سورية مثلها.. بكاه كل من عرفه.. رحل القائد والخطيب والعالم والأديب والمفكر والمنظِّر، وترك مكانه شاغراً هيهات أن يجود الزمان على سورية وعلى الدعوة بمن يملؤه.. استراح الجسد، ولكن هيهات لروحه المبثوثة في كتبه وخطبه وشعره وحكمه ووصاياه ورسائله أن تعرف الراحة.. إنها النذير البشير.

لقد كابد الكثير في عمره القصير الذي لم يصل إلى الخمسين.. وكانت مكابداته منذ أن فتح عينيه على النور في بيت يتلى فيه القرآن، ويمتلئ بحديث رسول الله ﷺ، ويُتدارس فيه الفقه، وأحوال الأمة الإسلامية، فكان داعية الكرامة والشموخ، داعية العروبة والإسلام، يصرخ بأبنائها: ياأبناء هذه الأمة! فتقف الشعور، وتستوفز الأعصاب، وتغلي الدماء في الرؤوس، وتهيج العواطف، وتثور الكوامن..

مات سيد الرجال.. رجل الرجال.. الذي لم يقعده المرض والشلل عن حمل أعباء الدعوة، ولا عن الجهاد باللسان والقلم.. ولم يقعده المثبطون والحاسدون والحاقدون من الأقرباء والأبعداء عن حمل تلك الراية.. لم ييأس.. ولم يلق السلاح..

قال رسول الله ﷺ: إنما الناس كالإبل المئة، لا يوجد فيها راحلة.

وقال السباعي: الحياة طويلة بجلائل الأعمال، قصيرة بسفاسفها.

* * *

## صفاته وشمائله

كان السباعي طويلاً، زاده الله بسطة في العلم والجسم، جميل الخلقة، متناسب الأعضاء، خفيف اللحية، أشقر البشرة والشعر، بسام المحيا، مهيب الطلعة، دائب الحركة، مع وقار لا يفارقه في سائر أحواله، عذب الحديث، مع فكاهة محببة يؤنس بها إخوانه وتلاميذه، في خفة دم، ورشاقة أسلوب، وجمال نطق، يحس جليسه بشدة قربه منه، كأنه أب، أو أخ، أو صديق حميم، لما يتمتع به من تواضع جم، في لباسه، وهندامه، مع أناقة ظاهرة فيهما، لأنه كان يعرف أن الرسول القائد كان يحب المظهر الحسن، والوجه الحسن، ويطلب أن يكون الرسل كذلك، كما يبدو تواضعه في مسكنه، وأثاث بيته، وسيارته، وهو ذو ذوق رفيع، يقوم على خدمة إخوانه، وضيوفه بنفسه، ويرعاهم، ويحرص على راحتهم، ويؤثرهم على نفسه، وهو ذو إحساس مرهف، وملاحظة دقيقة، وذكاء حاد، وبديهة نبيهة، وفطنة وفصاحة، وجرأة أدبية، وشجاعة لا تعرف الخوف، وإقدام واقتحام للمواقف الحرجة، لا يكاد يحسب للموت حساباً، يعرّض نفسه للخطر في سبيل إنقاذ إخوانه الذين يحبهم ويفتديهم بنفسه وماله وراحته، وكرمه كرم من لا يحسب للفقر ولما يكون في الغد حساباً، وهو ذو نشاط دؤوب لا يكل ولا يمل ولا يتشكى من تعب، ولا من جسامة الأعباء، وتراه في أشد حالات الإعياء مبتسماً، يبدأ من يلقاه بالسلام، مكباً على العلم، وعلى الدعوة إلى الله، بقلمه ولسانه، حتى وهو مريض تتناوشه الأوجاع من كل جانب، لأن ما يحمله من إيمان بالله، ورضا بقضائه، فوق كل وصف.

وكان عفيف اليد واللسان، منفتحاً على الآخرين، وكان يثق بإخوانه، وبأكثر الناس، ولا يتهمهم في نياتهم، وكان يواجه المشكلات بحزم وعزم، ولا يتهرب منها.

وكان قارئاً نهماً، يقرأ في الدين، والأدب، والسياسة، والاجتماع، ويحرص على قراءة ما تخرجه المطابع من الكتب المترجمة عن الغرب والشرق، أدباً، وسياسة، وفلسفة، وبهذا أفاد من علوم الغرب وأدبه، قرأها ونخّلها، فأخذ المفيد منها، وترك الضار، ونبه إلى المفيد والضار، ليجنب أبناء أمته العثرات.

وكان مؤمناً أشـد الإيمان بالله تعالى، وبرسـوله صلى الله عليه وسـلم، وإيمانه هذا لا حدود له، فهو عندما يقرأ حديث رسول الله ﷺ: «من اصطبح كل يوم بسبع تمرات من عجوة، لم يضره سُمٌّ ولا سحر ذلك اليوم إلى الليل». يقول: صدق رسول ﷺ، ويقول: «وقد جربت ذلك بنفسي، حين ذهبت إلى الحج عام ١٩٨٤، فاستمررت على التصبح بسبع تمرات من تمر المدينة، مدة خمسة أشهر كاملة، وأنا مصاب بمرض (السكر) ثم حللت البول والدم فلم يظهر أي أثر للسكر في البول، ولم يزد السكر في الدم عما كان عليه قبل سفري إلى الحج»[1].

وحدثنا الدكتور حسن هويدي عن السباعي قال: قال لي السباعي: «عندما كنت في أوروبة للعلاج من مرض السكر، أمرني الأطباء أن أبتعد عن تناول النشويات والسكريات والحلويات. سألتهم: والعسل؟ قالوا: والعسل أيضاً ممنوع. ولكنني لم أستجب لهم، واستجبت لقول الله تعالى الذي أخبرنا بأنه جعل في العسل شفاء للناس، فاشتريت مطرباناً من العسل، وخبأته تحت السرير، وكنت أتناول منه كل صباح ملعقة، وعندما أخبرت الأطباء بذلك دهشوا، لأن السكر عندي كان ينزل، وتعالى الله الذي جعل في العسل شفاء».

ومع ذلك، كان ينصح الآخرين بالعمل بما يراه الأطباء، لأن الإيمان درجات.

* * *

---

(١) مجلة حضارة الإسلام: ٥/ ٣.

## العوامل المؤثرة في تكوينه
## النفسي والفكري والسياسي

**أولاً ـ العوامل السلبية :**

أ ـ ثمة عوامل سلبية كان لها فعلها في نفس الفتى مصطفى السباعي تمثّلت في الاستعمار، وما جره على البلاد من تمزيق، وفقر، وجهل، وما نَجَمَ عن ذلك من تخلّف فكري، وخواء روحي، وقصور علمي، واضطراب سياسي واقتصادي، وطغيان مادي، ليس في سورية وحدها، بل في سائر البلاد العربية الإسلامية.

شهد الاستعمار الفرنسي، وعرف ما تبثه مدارسه التبشيرية من أفكار وقيم غريبة عن قيمنا العربية والإسلامية تريد بها التمكين له في البلاد، من خلال تمكن تلك القيم من نفوس التلاميذ، أبناء الطبقات الثرية وبناتها، ليكونوا في ركاب الغرب المستعمر، عندما يكبرون ويتولون المناصب الرسمية في الدولة، ويكونون العرابين لتسويق الغرب وحضارته في بلاد العروبة والإسلام.

فاهتم لذلك، وتصدى لأولئك المبشرين، ولتلك المدارس الأجنبية التبشيرية.

ب ـ وشهد نشاط الداعين والداعيات إلى (تحرير المرأة) من دينها وأخلاقها، لتكون مقلدة للمرأة الغربية في سفورها وفجورها وسمع بزيارة (هدى الشعراوي) لدمشق، واجتماعها بعدد من نساء سورية، من سائر المحافظات، وتحريضها إياهن على التحرر من (القيود) التي كبلهن بها المجتمع العربي المتخلف.

فاهتم السباعي بالمرأة، وكتب وخطب وألّف، حتى لا تكون المرأة ورقة في أيدي العلمانيين والفسقة والفجرة من أصحاب المذاهب الهدامة، والدعوات الغريبة المغرضة، بما لها من أموال وبرامج ومناهج مرصودة لهذا الغرض، حتى إذا ما رحل عن سورية، خلَّف عملاءه وأتباعه في الجيش والوظائف الكبيرة، في سائر المؤسسات السياسة والتربوية والاقتصادية، ليتابعوا مهمته في تخريب النفوس والعقول والأخلاق.

جـ ـ الأحزاب العلمانية التي كانت تتصارع فيما بينها، ولكنها كانت متفقة على فصل الدين عن الحياة، وإبعاده عن السياسة والتعليم والتربية، وتنادي بمبادئ وقيم اجتماعية مستوردة، ومنها ما جعل القومية السورية، أو القومية العربية بديلاً عن الإسلام، ومنها ما جعل الاشتراكية هي الدين الجديد للعرب.

عرف السباعي هذه الأحزاب، وزعماءها ومبادئها، والأيدي الخفية التي تحركها، فتصدى لها بعزيمة من حديد، وثقافة موسوعية نادرة، وذكاء خارق، وفكر ناضج، وعقل ضخم..

ثانياً: العوامل الإيجابية:

أ ـ أبوه الشيخ حسني السباعي، من أسرة عريقة في العلم، والفضل، والوجاهة، كان خطيب الجامع الكبير بحمص، وكان فقيهاً في الفقه الحنفي، ومطلعاً على المذاهب الأخرى، وكان خطيباً مفوهاً، ومحدثاً مؤثراً، وعالماً عاملاً، ومحباً لفعل الخيرات، وإسداء النصح للمسلمين، وإصلاح ما بينهم من خصومات ومشاحنات، وكان مجاهداً، ناضل الفرنسيين المستعمرين بلسانه وبماله وفتاواه، مطلعاً على ما يجري في سورية خاصة وفي الوطن العربي والعالم الإسلامي عامة، وكان يشجع الشبان على مقاومة المستعمرين، وعندما قرر ولده مصطفى خوض الحرب ضد اليهود في فلسطين، لم يكتف بتشجيعه، بل بذل له المال، وأرسل معه أخاه الصغير عبد الرحمن، وهو فتى في السادسة عشرة من عمره، وكان بهذا السلوك، قدوة علمية وعملية لولده مصطفى، كما

كان الفتى قرة عين أبيه الذي رأى فيه مخايل النبوغ، وأنه سيكون ـ في قابل الأيام ـ عالماً، وخطيباً، ووجيهاً في الدنيا والآخرة، فأولاه عناية خاصة، وبذل له من ذات نفسه الكثير، حببه بالعلم، وعلمه القرآن العظيم، تلاوة وحفظاً، وصحبه معه إلى مجالس العلماء، ليصقل نفسه، ويربي عقله، وينمي مداركه التي ظهرت أكبر من سنه، وأعلى من مدارك لداته، ودربه على الخطابة وهو فتىً، بل قبل أن يتجاوز سن الطفولة، فكان الطفل مصطفى يرتقي أحد الكراسي ويخطب في أسرته، أثناء تناول الطعام، وفي لحظات السهر والسمر، والوالد يشجعه، وتدمع عينا الوالدة وهي ترى طفلها منفعلاً بما يقول، فترفع يديها، وتشخص بعينيها، ضارعة إلى المولى الرحيم، أن يتولى طفلها بعين عنايته ورعايته، والطفل سعيد بما يفعل، وبما يرى ويسمع، فيزداد تعلقه بالقرآن، وبحديث رسول الله ﷺ، يحفظه ويخطب به في مسجد أبيه في أيام رمضان، وأثناء الدروس التي كان يلقيها أبوه الذي كان يطلب منه ذلك، ليعوّده على ذلاقة اللسان، وتستوسق له ملكة الفصاحة ارتجالاً.

ب ـ تعليمه:

كان السباعي يتلقى العلم من جهتين: جهة أبيه الذي علّمه القرآن الكريم تلاوة، وتجويداً، وحفظاً وفهماً، كما علّمه مبادئ النحو والصرف واللغة، والفقه والحديث، وصحبه إلى مجالسه مع علماء حمص، ليحضر تلك الحلقات العلمية، ويتشرب حب العلم والعلماء، من خلال تحاور أولئك العلماء والكبراء بعضهم مع بعض، فعبَّ من علومهم الشيء الكثير، ونهل من أخلاقهم، وتعلم منهم الصبر على المدارسة من أجل الفهم والاستنباط، وعرف منهم أن ثمة طرائق أخرى للتحصيل العلمي، وبناء الشخصية السوية، كالمطالعة الحرة، ومعايشة الكتاب في المكتبات العامة والخاصة، ومن جهة أخرى: من المعهد الشرعي الذي درس فيه بحمص.

فإذا أضفنا إلى هذا تعليمه في الأزهر، ومصاحبته العلماء الأحرار الكبار في مصر، أولئك الثوار على الاستعمار والتغريب وسائر أشكال التخلف

العقلي، والروحي، والاجتماعي، والسياسي، والديني ـ عرفنا سبب النضج المبكر لدى السباعي الشاب، فقد كان لهذا العامل أثره في جعله مفكراً حراً، وباحثاً عقلانياً متزناً، ومحاوراً عميقاً مدهشاً، وكاتباً موضوعياً يعتمد الأدلة والبراهين في محاججة الآخرين، وتناول الموضوعات.

جـ ـ الثورات المحلية ضد الاستعمار الفرنسي، وأكثرها إسلامية، دعا إليها العلماء، وقادها تلاميذهم.. سمع من أبيه وعلماء مدينته عن أولئك المجاهدين في الغوطة، وجبل الزاوية، والحفة.. سمع بالقسام، والخراط، وهنانو، أولئك الذين ضحوا بالمال، والجهد، والراحة، والدم الحر، من أجل طرد الاستعمار، فكان لهذا أثره العميق في نفس الفتى السباعي.

د ـ الإمام الشهيد حسن البنا، ومدرسته الإخوانية الجامعة لسائر مقومات النهوض والانبعاث الإسلامي في مجالات الحياة كافة في التربية والتعليم، وفي النضال الوطني، وفي الجهاد في سائر الساحات العربية والإسلامية، وفي الثورة على سائر أشكال التخلف في المجتمعات العربية والإسلامية وفي مقارعة الاستعمار الإنكليزي الذي كان سبب ما نزل بأمتنا من مصائب وكوارث، وها هو ذايحتل مصر، وفلسطين، والأردن، والعراق، وسواها.. وفي منازلة اليهود الغاصبين لفلسطين الحبيبة..

* * *

## مواقفه

١ ـ دعوته إلى الحياد بين المعسكرين :

«عقدت معاهدة بين تركية والعراق في شباط ١٩٥٥م نصّت على التعاون بينهما من أجل الأمن والدفاع، ثم انضمت إليهما المملكة المتحدة، وباكستان وإيران، وأنشأت المعاهدة مجلساً دائماً على المستوى الوزاري، يتألف من الدول الأطراف في المعاهدة، ثم أنشئت لجنة عسكرية، ولجنة اقتصادية، وقد عرفت المعاهدة باسم حلف بغداد.

وتشترك الولايات المتحدة في اجتماعات اللجنتين: العسكرية والاقتصادية، بالرغم من أنها لم تنضم إلى المعاهدة نفسها»[1].

هذا الحلف عدّه السباعي حلفاً استعمارياً وندّد به وبأمثاله من الأحلاف والمعاهدات الاستعمارية، وقد كان يقف ضد الاستعمار في سائر أحواله، حتى وهو مريض في بيته، وقبل أن ينقل إلى المستشفى، كتب كلمة للإذاعة السورية بعنوان: «نحن أمة لها كيانها، فلن تكون تبعاً لأحد، وسيكون صراعنا مع الاستعمار عنيفاً، حتى نطهر أرضنا من سلطانه». . وأذيع هذا الحديث نيابة عنه مساء الإثنين ٣/ ١٢/ ١٩٥٦م هاجم فيه الاستعمار، ونادى بالحياد بين المعسكرين، وكان مما قال:

«إننا نعلن أننا أحرار حياديون في هذا الصراع، ولن نرضى لأنفسنا أن يكون همُّنا الانتقال من دائرة نفوذ إلى دائرة نفوذ آخر. . نحن أمة لها كيانها،

---

(١) الموسوعة العربية الميسرة: ١/ ٧٣٣.

ولها فلسفتها، ولها رسالتها، وقد حملنا هذه الرسالة، حين جُعلنا أمة وسطاً لنكون شهداء على الناس، وسنقدم في سبيل حمل هده الرسالة أرواحنا ودماءنا، كما قدمناها من قبل، ولن نستطيع تأدية هذه الرسالة، الا يوم نكون أحراراً، وسنكافح في سبيل هذه الحرية كل معتدٍ علينا، مهما عزّ الفداء، وغلا الثمن.

ومن أجل هذا قررنا بيننا وبين أنفسنا، أن صراعنا مع الاستعمار سيكون طويلاً، عنيفاً، باهظ التكاليف، ولن نغمد السيف حتى تطهر أرضنا من بقايا سيطرته وسلطانه، وسننتصر بإذن الله، لأننا أمة الحياة، كتب الله على جباهها الخلود»[1].

وقال:

«إننا نسلك الطريق الصحيح في تحديد موقفنا من الأحلاف والاستعمار، ولا شك أن الطريق الوحيد أن نعتمد على أنفسنا، وألا نرتبط بعجلة الاستعمار، وأن نتحرر»[2].

وقال:

«يجب أن نخاطب العالم، فمكاننا مكان قيادة، ولا تبعية، وواجب الشباب المسلم أن يشعر أن رسالته لا كرسالة الإنكليز أو الروس أو الألمان أو الفرنسيين.. بل رسالته هي قيادتهم، لأنهم حائرون»[3].

وأرسل الدكتور السباعي ـ الذي كان رئيس المكتب التنفيذي لقادة الإخوان المسلمين في البلاد العربية ـ مذكرة إلى رؤساء الحكومات الإسلامية في باكستان، وأندونيسية، وأفغانستان، وإيران، وتركية في ٢٨/ ١١/ ١٩٥٦م تحدث فيها عن جرائم الاستعمار في بلاد العرب والمسلمين، ومكائده في تفرقة

---

(١) الشهاب: ٨٠.
(٢) المرجع السابق: ٦٦.
(٣) المرجع السابق: ٦٦.

المسلمين، ومؤامراته بإيجاد إسرائيل، وأهاب بالدول الإسلامية أن تبادر إلى إنهاء حلف بغداد، وخوض المعركة ضد الاستعمار، وتأييد وحدة العرب، باعتبارها شرطاً أساسياً لوحدة المسلمين، وخلاصهم من ربقة الاستعمار، كما فنَّد الدعوة المريبة لتكتيل الدول الإسلامية باسم مقاومة النشاط الهدام، وأعلن عن تصميم العرب على الوحدة والتحرير وإزالة إسرائيل، كما أعلن أن سياستنا تقوم على الحياد»[1].

والسباعي أول من نادى بالحياد الإيجابي بين المعسكرين، وسياسة عدم الانحياز التي تبناها ـ فيما بعد ـ عبد الناصر بعد أن كانت شعوبنا قد آمنت بها، نتيجة الكلمات النارية التي كان يلقيها السباعي على شكل خطابات، أو يكتبها مقالات، حتى قال الأستاذ محمد جمال باروت:

«هذه السياسة كانت قائمة بوضوح، في الوعي السياسي للفئات الوسطى في سورية، منذ مطلع الخمسينيات، ويشير ذلك إلى الطابع الموضوعي لهذه السياسة»[2].

وبيَّن السباعي الأسباب التي دعته إلى رفض الانحياز إلى أحد المعسكرين، وهي:

١ ـ إن الصراع بين المعسكرين هو صراع بين مذهبين لم يثبت أحدهما صلاحه لإنقاذ العالم من شقائه.

٢ ـ وإن المعسكرين يصطرعان على سرقة كنوزنا.

٣ ـ وإن انحيازنا إلى أحد المعسكرين يقرر مصير هذه المعركة.

٤ ـ وإن مصلحتنا في ترك هذا الصراع يقوى ويشتد، حتى يضعف الفريقان معاً، ونستفيد نحن من ضعفهما قوة وانطلاقاً.

---

(١) الشهاب: ٧٩.
(٢) محمد جمال باروت: راية الاستقلال ـ آذار ١٩٩٢.

٥ ـ وإن الانحياز إلى أحدهما، يكبلنا بالقيود من جديد، ويجعل بلادنا مسرحاً لحرب عالمية ثالثة نصطلي نحن بنارها.

ولنتأمل نظرته المستقبلية هذه. يقول السباعي:

«في ظني أن الإنسانية لا بد من أن تختار نظاماً صالحاً خيراً منهما ـ من الرأسمالية والاشتراكية بأنواعها ـ وأن المذاهب الاقتصادية ستتطور تطوراً يؤدي إلى تقاربها، وهنا لن تجد الإنسانية خيراً من اشتراكية الإسلام أو نظامه»[1].

**٢ ـ موقفه من الشيوعة والاتحاد السوفياتي:**

ألّف الشهيد الشيخ عبد العزيز البدري كتاباً في الرد على كتاب السباعي (اشتراكية الإسلام) وكتب مقدمة الكتاب علامة العراق الشيخ أمجد الزهاوي، وعرَّض بكتاب السباعي (اشتراكية الإسلام)، فردَّ السباعي رداً في غاية التهذيب على الشيخين، وهذه الكلمات كانت تعليقاً على مقدمة الزهاوي. قال السباعي متحدثاً عن نفسه، في مجلة حضارة الإسلام:

«كان ـ السباعي ـ أول من حمل لواء الدعوة إلى مناهضة الشيوعية في بلادنا بعد إطلاق سراحه من الاعتقال ـ خلال الحرب العالمية الثانية ـ في وقت كان الحلفاء الغربيون يتعاونون مع روسية للقضاء على خطر هتلر يومئذٍ، حتى كانت سفاراتهم هي التي تنقل النشرات الشيوعية في سياراتها الرسمية، وتوزّعها على الناس بكل ما أوتيت من جهد ونفوذ وكان رجال الدولة عندنا يحضرون احتفالات الشيوعيين بتحرير لينغراد وستالينغراد وغيرهما، ويقفون عند ابتداء الحفلات بالنشيد الشيوعي الرسمي، كما يقفون تماماً عند النشيد السوري الرسمي».

«في هذا الوقت بالذات ـ عام ١٩٤٢م فما بعد ـ كان (السباعي) يلقي المحاضرات العامة علناً ضد الشيوعية، وقد كان يستمع إليها عشرات الألوف».

---

(١) مجلة الحضارة: س٣/ ٧٦٦.

كان السباعي «من ألدِّ أعداء التطبيق الستاليني للاشتراكية».

«ومع ذلك دافع عن أقصى درجات التعاون السياسي والاقتصادي مع الاتحاد السوفياتي ـ منذ عام ١٩٤٨م ـ في الوقت الذي كان فيه خصماً لدوداً وعقائدياً للشيوعية من حيث إنها عقيدة.. ذات فلسفة مادية تنكر الروح وما وراء المادة»(١).

«أما (الشيوعية كدولة ذات قوة وأهداف سياسية) فقد أعلن السباعي بوضوح منذ عام١٩٤٨م على الأقل، دفاعه عن أقصى درجات التعاون الاقتصادي والسياسي معها ممثلة في الاتحاد السوفياتي، في مواجهة الاستعمار الغربي»(٢).

«وقال السباعي: نعتزم التوجه إلى المعسكر الشرقي، إذا لم ينصفنا الديمقراطيون.. ونجيب أولئك الذين يقولون: إن المعسكر الشرقي هو عدونا ـ متى كان المعسكر الغربي صديقاً لنا؟ إننا سنربط أنفسنا بروسية، ولو كانت الشيطان نفسه»(٣).

وبمعنى آخر، أدرك السباعي الدور الاستراتيجي الدولي الحاسم للاتحاد السوفياتي، في دعم حركة التحرر الوطني العربية، في زمن السنوات الحارة للحرب الباردة، إذ ارتبط عداؤه للرأسمالية بعدائه للغرب»(٤)، فلا لقاء بين الرأسمالية الغربية والإسلام، لأنها ملوثة بدماء الشعوب، وهي الباعث الأول للاستعمار، تفوح من أدرانها روائح الاستعباد واللصوصية والاستغلال. ولذا لا مجال للقاء معها في مجال ما، لا في مذهبها الاقتصادي، ولا في واقعها السياسي»(٥).

---

(١) باروت ـ يثرب الجديدة: ١٢٠ ـ ١٢١.
(٢) باتريك سيل ـ الصراع على سورية، ص١٢٩ نقلاً عن باروت.
(٣) باروت، ص١٢٤.
(٤) اشتراكية الإسلام، ص٢٥٧.
(٥) الشهاب: ٨٠.

والأستاذ السباعي واعٍ لما يجري حوله، ولا يؤخذ بالمظاهر الكاذبة، اسمعه يقول:

«نحن نعلم أن الغرب، حين يتظاهر بالجزع من تزايد النفوذ السوفياتي - على زعمه - في بلادنا، لا يقصد بذلك غيرة على حقوقنا، ولا دفاعاً عن حريتنا، فهو هو الخصم اللدود لتحررنا، واستكمال سيادتنا، وإنما يغار على مصالحه من أن تذهب من قبضته إلى الأبد، لتكون لنا وحدنا نحن أصحاب الحق في أرضنا وثرواتنا»[1].

وهو يرى أنه لا يجوز أن يستدرج الإسلام لمحاربة الشيوعية، لمجرد أنها عقيدة مادية تحارب القيم الدينية والأخلاقية، لأن الغرب المسيحي يتبنى - بدوره - سياسات قائمة على حسابات ومصالح مادية بحتة، ومثال ذلك: زرع إسرائيل ذات العقيدة الصهيونية المادية، في قلب العالم الإسلامي.

ثم إن الغرب المسيحي يقف في وجه آمال الشعوب المستمرة في التحرر والاستقلال.

ورحَّب بالتعاون السياسي فيما بين البلدان الإسلامية والاتحاد السوفياتي الذي يساعد البلاد العربية في مواجهتها مع الاستعمار الغربي.

ولنقرأ هذه(الطرفة):

عندما كان السباعي رئيس تحرير جريدة(المنار) شنَّ حملة عنيفة على الشيوعية، على مبادئها، وسياستها، وتخريب الأحزاب الشيوعية لِلُحْمة المجتمعات العربية، وتفكيك الأسر، وإشاعة الإلحاد والمجون وما إلى ذلك.

وذات يوم، وفيما كان في إدارة الجريدة، رنّ جرس الهاتف، وإذا السفير الأمريكي يريده للكلام، فأبى السباعي مكالمته، وعرف أنه يريد أن يصطاد في

(١) وليد عبد الناصر - جريدة الحياة: ١٢٣٥٤ .

الماء العكر، وفوّت عليه فرصة الحديث، ثم ما يمكن أن يحاك ويقال عن هذه المكالمة، وما تم في ذلك اللقاء، فيما لو تم. .

كان يريد أن يكون فوق الشبهات، وهو كذلك، ولكنه يريد أن يذبَّ عن نفسه، وعن الجماعة التي يقودها، حتى لا يمسّها الشيوعيون والبعثيون والاشتراكيون بكلمة سوء.

كما «استبعد أي فرص للتقارب بين الإسلاميين والشيوعيين في البلدان المسلمة، لأن الشيوعيين هنا، يتبعون سياسات متذبذبة، لا هي وطنية، ولا هي مستقاة من مصالح الأمة، بل ناتجة عن التأثيرات الأجنبية. ورأى أن الإسلام ـ وليس الشيوعية ـ هو الذي قاد النضال ضد الاستعمار، وحثّ الشعوب على (الشهادة) كما حدث في ثورة الجزائر عام١٩٥٤»[١].

**٣ـ موقفه من القضية الفلسطينية:**

أحس الإخوان بخطر الصهيونية على فلسطين في وقت مبكر، فأرسل الأستاذ البنا الوفود إلى فلسطين يستطلع حالها من أهلها المجاهدين، وخاصة من مفتيها الشيخ أمين الحسيني، وفارسها الشيخ عز الدين القسام، كما أثار القضية في مصر، في الصحافة والمساجد والمظاهرات والمحاضرات، وأسس الجهاز الخاص من أجل مقاومة الإنكليز المحتلين في مصر، وفي فلسطين، وكذلك مقاومة الصهاينة الذين كانوا يلقون الدعم من الإنكليز والأمريكان وروسية الشيوعية، وسواها من دول الغرب والشرق.

وشارك السباعي في فعاليات الإخوان في مصر، وخطب من أجل فلسطين، واتصل برجالها، وعندما عاد إلى سورية، تابع ما بدأه بمصر، لأن القضية الفلسطينية هي قضية العقيدة والمقدسات، وهي قضية العرب والمسلمين في القرن العشرين.

---

(١) المصدر السابق.

يقول السباعي:

إنـه في عام ١٩٤٢م اجتمع بالشيخ نمر الخطيب بدمشق، الذي كان قادماً من فلسطين» فحدثني عن استفادة يهود فلسطين من الحرب العالمية الثانية، فقد شكلت السلطات البريطانية لهم كتائب تتدرب على القتال، وأمدتهم بالأسلحة والذخائر.. وقال:

«إن الوضع في فلسطين خطير، ونحن عرب فلسطين، يحظر علينا حمل أبسط أنواع الأسلحة، والعرب والمسلمون غافلون عما بُيِّتَ لفلسطين من شر بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية. فهل لك أن تعلن صوت النذير والإيقاظ؟»[١].

ومن هذه اللحظة انطلق السباعي يحاضر، ويخطب، ويقود المظاهرات، وينبه الغافلين، في دمشق وسائر المحافظات السورية.

وعندما جاء مفتي فلسطين، الحاج أمين الحسيني، إلى دمشق، فاراً من الأسـر في فرنسة، في ٢٩/ ٥/ ١٩٤٥استقبله السباعي، ورحب بـه، وكانت فلسطين هي محور الحديث، واقترح إقامة يوم لفلسطين في سورية، فأقامت جماعة الإخوان المسلمين يوماً لفلسطين كان له دويه العالمي، حتى احتجت بعض السفارات العربية لدى السيد رئيس الجمهورية: شكري القوتلي، فرد عليهم: (الشعب بيحكي، انتو شو عملتو؟)[٢].

وبالاتفاق مع المفتي أوفد السباعي عدداً من الإخوان إلى فلسطين، كما أوفد بعض الضباط اليوغسلافيين: (محمد مفتيش، وشوقي، وسعد) لدراسة الأوضاع الدفاعية بالتعاون مع أبناء فلسطين.

وتم التفاهم والتنسيق بين السباعي وبين القائد المجاهد(عبد الله التل) أحد قادة الجيش الأردني ـ الذي سمح لمجموعة من الإخوان بالعمل، على أنهم

---

(١) الإخوان المسلمون في حرب فلسطين، ص٣٢٤.

(٢) ذكريات زهير الشاويش عن مشاركة الإخوان في حرب فلسطين، ص٢٥.

من منظمة (الجهاد المقدس) «وأعطينا هويات نتجول بها، مع تغيير الأسماء أحياناً»[1].

«وكانت الحكومة البريطانية تمنع دخول من تظن أن لهم علاقة بالجهاد الفلسطيني إلى فلسطين، وقد منعت السباعي من العبور إلى مصر بالقطار أكثر من مرة»[2].

وكان السباعي لا يفتأ يذكر فلسطين، بلسانه وقلمه، ينذر ويحذر، ويفضح بريطانية التي تسهل هجرة اليهود إلى فلسطين، وتدربهم على القتال، وتناصرهم في هيئة الأمم ومجلس الأمن، ومعها أمريكة، وروسية الشيوعية، والغرب (الديموقراطي)، وقد كتب مقالة بعنوان (رمضان يتحدث) في آب ١٩٤٧م حذر فيها العرب والمسلمين من المصير البائس الذي سوف تصير إليه فلسطين إذا استمروا فيما هم فيه من عبث وعجز. وقال:

«هذه فلسطين تكاد تفلت من أيديكم، وهاهي الشرارة الأولى تنذركم باندلاع النار، وانفجار البركان. هاهو بدء النزاع بين العرب العزل، وبين اليهود المسلحين قد ذرَّ قرنه.

فماذا أعددتم لنصرة إخوانكم؟

أين شبابكم يهيئون سواعدهم للنضال؟

وأين رجالكم يهيئون أبناءهم للقتال؟

وأين أغنياؤكم يفتحون صناديقهم للبذل؟

وأين زعماؤكم ينفخون في قلوب الجماهير نار اليقظة والاستعداد؟

وأسفاه! إني لا أرى إلا صرخات تذهب هباء، واستعدادات تتجلى كل

---

(١) ذكريات زهير الشاويش، ص١٦.

(٢) المرجع السابق، ص٢٥.

قوتها في مظاهرات يهتف بها بضعة أطفال، ثم لا شيء. ثم غفلة. ثم استهتار. ثم انكباب على الشهوة واللذة، وأعداؤكم يضرمون النار في بيوتكم؟»[1].

لقد قرأ(السباعي) الشاب الأستاذ، حيوات الرجال العظام من أمثال عبد الله بن المبارك، وأسد بن الفرات، والعز بن عبد السلام، وابن تيمية، من رجال العلم والجهاد، فآلى أن يقتدي بهم فقيها مجاهداً[2] بنفسه وماله وقلمه ولسانه اللذين كانا أحدّ من السيف في فضح التآمر الدولي مع الصهيونية لابتلاع فلسطين، وفضح الأنظمة العربية العميلة، والدعوة إلى الإعداد والاستعداد والتعبئة العامة، ليخوض الشعب السوري، والأمة العربية برمّتها معركتها المقدسية ضد الإنكليز واليهود الغزاة.

وهو يرى أن معركتها مع اليهود هي:

معركة بين العقيدة واللاعقيدة.

وبين العلم والجهل.

وبين النظام والفوضى.

ولهذا كان يركز على العقيدة، والعلم، والنظام، أسلحة ماضية في حربنا الفاصلة مع اليهود، وطالب البرلمان بأن تدرس مادة باسم القضية الفلسطينية في الشهادات الدراسية، وأن تكون مادة أساسية، وقد استجيب لطلبه، كما كان يقيم أسبوعاً لفلسطين في كل عام، وخصص ركناً في مجلته (حضارة الإسلام) باسم (الدرة المغتصبة).

وشارك في المؤتمر الإسلامي العام في القدس، وكان ـ كدأبه ـ فعالاً فيه، وعندما عقد ذلك المؤتمر في دمشق، وضع الإخوان والمركز العام، وسائر إمكانات الجماعة، تحت تصرُّفه، في سبيل إنجاحه.

---

(١) أحكام الصيام وفلسفته، ص٧٩.
(٢) د. البيومي ـ النهضة الإسلامية: ٣/ ٤٧٥.

وكان يزور القدس، وغيرها من المدن والبلدات والقرى الفلسطينية، ويتصل بأهلها، ويدرس أحوالهم عن كثب، ويخطب في مساجدها ومنتدياتها، محذراً، ومنذراً، ومعبئاً.

وفي المؤتمر المسيحي ـ الإسلامي الذي انعقد في بحمدون بلبنان «رأى الدكتور مصطفى أن يصارح المجتمعين بأن عداء الإسلام للشيوعية لا يجعلنا نسكت عن مؤازرة أمريكة للصهيونية، وعملها على سلب حقوق المسلمين في فلسطين. فإذا كانت أمريكة تسعى إلى الخير الذي جاءت به المسيحية، فمن واجبها أن تنتصر للحق لذات الحق، أما أن تنضم جهاراً إلى الصهيونية، وتدعو المسلمين إلى تأييدها في اتجاهاتها، فهذا موضع الاعتبار.

وقد فوجئ الذين عقدوا المؤتمر، بأن الغرض المستتر في نفوسهم من انعقاده، قد تبدد بعد كلمة الدكتور السباعي، فسكتوا على كمد»[1].

وما فتئ السباعي ينذر بخطر القضية في الكثير من كتاباته وأحاديثه وخطاباته، في شتى المناسبات، فها هو ذا (في ذكرى الإسراء والمعراج) يقول: يجب أن تتجه قلوب المسلمين نحو فلسطين. ويعدد مغازي هذه الذكرى فيقول: إنها معجزة يذكرها المسلمون في مثل هذا اليوم من كل عام، ويرون فيها دليلاً قوياً على عناية الله برسوله، وعلوّ مكانته بين الأنبياء والمرسلين.

وهناك مغزى وطني: أن تحطم الأمة كل قيد. وتزيل من طريقها كل عقبة، وأن لا ترضى بالحياة إلا أن تكون كريمة.

وفيها مغزى اجتماعي: أن تكون حافزاً للأمة لتحلق في أجواء الفكر والعلم والسمو والكمال.

أما المغزى السياسي فهو: أن لفلسطين أهمية كبرى في حياة هذه الأمة، وأن الصلة بين مكة والقدس صلة وثيقة العرى، وأن لبيت المقدس من الخطر

---

(١) د. البيومي، النهضة الإسلامية: ٣/ ٤٧٧.

في مستقبل الزمن، ما لا ينبغي أن تجهله الأمة، أو تغفل لحظة عنه.

وقد توج هذا، بخوض حرب فلسطين عام ١٩٤٨م على رأس كتيبة من الإخوان السوريين، وقد وصفه وإخوانه الدكتور محمد الفاضل بقوله:

«ولقد شوهد السباعي، وإخوان السباعي، في حومة فلسطين ـ رعى الله فلسطين ـ يتسعرون بالإقدام، ويتفجرون بالحمية الوطنية، ويهتفون بالتضحية، ويجدعون بالإيمان أنف النكبة.. بينما كان الغواة المضللون، يلتهمون زاد الأمة العربية مع الوحش، وينضجون شواءهم في حريقها»[١].

ووصفه الدكتور سعيد رمضان، وهو يقاتل في فلسطين فقال:

ـ «هذا المزيج العجيب قد خبرت من أمره فيما بعد، روائع أثناء صحبة الجهاد المسلح على خط النار، فإذا هو ـ من حول بيت المقدس ـ يتحدى العدوان والغدر، ويقاتل قتال من حِرْفَتُه الحربُ وطلبُ الموت، لا من قضى زهرة عمره في أكناف الأزهر، بين المتون والحواشي ومذاهب الآراء»[٢].

٤ ـ موقفه من الغرب والتغريب:

يرى السباعي أن كلاً من الرأسمالية، والشيوعية، نتاج للحضارة الغربية، وإليها ينتميان، وهي حضارة مادية لم تلبِّ الاحتياجات الروحية للبشر.

فالشيوعية عقيدة مادية تحارب القيم الدينية والأخلاقية، وكذلك الغرب المسيحي، يتبنى بدوره سياسيات قائمة على حسابات ومصالح مادية بحتة، وضرب مثلاً على ذلك، بزرعه(إسرائيل) في قلب العالم العربي، وهي ذات عقيدة صهيونية مادية. كما أن الغرب ـ ومنه إسرائيل ـ يمارس سياسة عنصرية ضد غيره من الشعوب، فحضارة الغرب مادية تحكمها المصالح لا المبادئ والأخلاق، والغربيون ـ على الإجمال ـ قوم ماديون، ينحصر تفكير جمهورهم

---

(١) مجلة حضارة الإسلام ـ العدد الخاص عن السباعي، ص٤٢٢.
(٢) مجلة المسلمون ـ س٩ ـ ع: ٣ ـ ص٢٠٢.

في تحسين معيشته، أو الحصول على كسب مادي أكثر، بصرف النظر عن المبادئ والأخلاق.

يقول السباعي:

«زرت أوروبة أكثر من مرة، وزرت الاتحاد السوفياتي وبعض بلدان أوروبة الشرقية، وفي هذه الرحلات كلها، أتيح لي أن أتعرف على حقيقة الحياة الاجتماعية في العالم الغربي والعالم الشيوعي، وقد خالطت فيها مختلف الطبقات، وكنت حريصاً أن أستفيد من كل ما أرى وأسمع، وأن أنظر إلى الأمور نظرة باحثٍ منصف.

ومع أني أعجبت بكثير من مظاهر الحياة في أوروبة الغربية وفي العالم الشيوعي فإن الذي اقتنعت به، أن الحضارة الغربية بقسميها: الرأسمالي والشيوعي، حين أهملت الروح في بناء أسسها الحضارية، أفقدت الإنسان مناعة كبرى ضد القلق والاضطراب، وأن الشيوعية زادت على ذلك، أنها أفقدت الإنسان مثله العليا التي تتخطى حدود الحياة المادية من أكل ولبس ومسكن. لقد اقتنعت بأن الإنسانية تنشد حضارة من طراز آخر تجد فيها استقرارها النفسي، ولا تفقد فيها مُثلها العليا»[1].

ولمن أراد المزيد من الشرح والتفصيل، فليرجع إلى كتابه القيم (من روائع حضارتنا) ففيه توضيح وتوكيد لهذه الحقيقة، ونرى مثل هذا في كتبه الأخرى، وفي مجلته (حضارة الإسلام).

لقد طاف السباعي في عدد من الدول الغربية والشرقية، وعرف المستشرقين عن قرب، وعلم ما تخبئه صدورهم من أحقاد دفينة ضد الإسلام والمسلمين، وخبر الحياة الغربية، واتخذ موقفه منها عن علم.

أذكر للسباعي العليم، محاضرة له في مركز الإخوان بباب الجابية بدمشق

---

(١) اشتراكية الإسلام، ص١٨ ـ ١٩.

عام ١٩٥٥م عن أحقاد الغربيين على الإسلام والإسلاميين الدعاة إلى الله، وأنهم يثيرون الحكام على الإسلاميين، وقد استجاب لهم الحكام، وفي مختلف الحكومات على اضطهاد أبناء الحركة الإسلامية، (المتعصبين للإسلام ضد غير المسلمين) ثم قال: من منا المتعصب؟ نحن أم هم؟

واستشهد على تعصبهم علينا بحادثتين:

الأولى: رواها له الدكتور معروف الدواليبي عندما كان طالباً في فرنسة، فقد زعم أستاذه الفرنسي أن الإسلام يسمح للدائن أن يأخذ من المدين المعسر أحد أعضائه وفاء لدينه، وعندما سأله الدواليبي عن المرجع الذي استقى منه هذه المعلومة وسواها، أجابه بأن لديه عدداً من المصادر والمراجع الفقهية والتاريخية التي تذكر هذا، ولكنه لم يستطع أن يذكر اسم كتاب واحد، وتحت إلحاح الدواليبي، وعده أستاذه بأن يأتيه بأسمائها في المحاضرة القادمة، ولكنه لم يأتِ بشيء، وزعم أنه نسي الموضوع، وأخلف مرات، عندها قال له الدواليبي أمام الطلاب جميعاً: إن ما قلته ـ يا أستاذي ـ محض افتراء على الإسلام وكتب المسلمين.

الثانية: رواها له الأستاذ أبو الأعلى المودودي، وتتلخص في أن رئيس الجامعة الأمريكية في بيروت دعاه لإلقاء محاضرة في الجامعة (١٩٥٥)، عن فساد النظرية الاقتصادية الماركسية، وحضر جمهور غفير غصت بهم قاعة المحاضرات، من المثقفين والسياسيين والمفكرين، وعندما أعلن المودودي ـ وهو على المنصة ـ عن موضوع محاضرته، وهو (مقارنة بين النظرية الاقتصادية الماركسية، والنظرية الاقتصادية في الإسلام) وقال: وسوف ترون أن النظرية الإسلامية تتفوق ـ بكثير ـ على النظرية الاقتصادية الماركسية. يقول المودودي: في هذه اللحظة، قطعوا التيار الكهربائي، وغرقنا في الظلام، ووقف رئيس الجامعة يعتذر إلى الجمهور عن هذا الخلل، ودعاهم إلى الانصراف، ثم قادني إلى غرفته المجاورة، وقبل أن أبدي استغرابي واحتجاجي، بادرني بقوله:

«نحن طلبنا منك أن تتحدث عن فساد النظرية الماركسية في الاقتصاد، وقصورها عن تحقيق السعادة للبشرية، وأنت تريد أن تبرهن لنا على تفوق النظرية الاقتصادية في الإسلام، على النظرية الاقتصادية في الماركسية».

وسكت رئيس الجامعة برهة ثم تابع بوقاحة: «نحن نفضل أن تحكمنا النظرية الماركسية والماركسيون، ولاتحكمنا النظرية الإسلامية والإسلاميون».

وقال السباعي: «وإذا كان المانع ـ من الاستفادة من الإسلام وحضارته ـ هو الخوف من أن يرمينا الغرب بالتعصب، فهو خوف (قاتل) إنه يمنعنا من أن نحكم البناء كما ينبغي، وكيما يدوم طويلاً.

لقد كان الغرب يحاول أن يمنع حركتنا التحريرية من المضي في طريقها بتهمة (التعصب الوطني) وكان يخاف من ذلك ضعاف الإيمان بوطنهم وبأمتهم، ولقد مضى هؤلاء إلى سبيلهم، واستقامت حركتنا التحريرية، وآتت ثمارها، منذ نشأ فينا جيل من القادة لا يخاف من تهمة (التعصب الوطني) بل يباهي بها، وتهمة (التعصب الديني) هي من تلك المحاولات التي يحاول بها الغرب أن يمنعنا من البناء القوي المتكامل.

إن الغرب متعصب لنفسه، في كل ما يعود عليه بالخير، متعصب علينا في كل ما يعود علينا بالخير.

فلنمضِ في طريقنا، غير مصغين إلى ذلك المتعصب للباطل، ليمنعنا من الأخذ بالحق»[1].

احتدَّ الصراع بين تيار التغريب الوافد مع الاستعمار، ومن بلاد المستعمرين من جهة، وبين السباعي داعية العروبة والإسلام المتمسك بالقيم العربية والإسلامية، الرافض لمظاهر التغريب في الثقافة والفكر، وفي الحياة الاجتماعية التي أرادها المستغربون خروجاً على تلك القيم.. من جهة أخرى

---

(١) اشتراكية الإسلام، ص٢٠.

وكان الصراع الأيديولوجي عنيفاً بين السباعي، ممثل الطليعة المؤمنة، وبين المستغربين والمستشرقين من اليمين واليسار على حدٍّ سواء، وقد أبلى السباعي أروع البلاء في هذا الصراع.

### ٥ ـ موقفه من القومية العربية:

الأمة العربية حاضنة الإسلام، وعلى أرضها ظهر، ونبي الإسلام عربي، والقرآن بالعربية نزل، وفي جزيرة العرب: البيت الحرام، والمسجد النبوي، وفي بلاد العرب: المسجد الأقصى الذي بارك الله فيه وفيما حوله، وفي بعض الآثار أن لغة أهل الجنة هي اللغة العربية، والخلفاء الراشدون عرب، والقادة الفاتحون عرب، وأكثر العلماء والأدباء والتابعين والصالحين والشهداء من العرب، وتراث الإسلام مكتوب باللغة العربية، والحضارة العربية من حضارة الإسلام، بل هي نفسها حضارة الإسلام. .

ولهذا كان للعروبة مكانة رفيعة في نفوس المسلمين عامة، والإسلاميين خاصة، ولدى السباعي بشكل أخص، وكثيراً ما كان يطرب أسماع المستمعين لخطبه بهذا النداء الحبيب: يا أبناء العروبة والإسلام. . دائماً يقرن العروبة بالإسلام، والإسلام بالعروبة، في كتاباته، وخطاباته، ومحاضراته، وأحاديثه العادية. .

ولهذا أهمه العرب، كما أهمه المسلمون، وناضل من أجل أن تتحرر الأقطار العربية من الاستعمار، وساعد قادة التحرر، وأيد الجامعة العربية، وقدم رأيه من أجل النهوض بها، لتكون فعالة، ونادى بالوحدة العربية تحت راية الإسلام، ثم أيد الوحدة السورية ـ المصرية، برغم كل الجراح التي أنزلها النظام الناصري به وبإخوانه في مصر.

وخلافاً لمفكرين إسلاميين آخرين، تشككوا من الجذور الغربية للقومية العربية، فقد عبر السباعي عن دعمه لها، مع التأكيد على أنها لا تعني تعصباً قومياً أو طائفياً، بل هي مفهوم لوطن داخل حدود الحضارة الإسلامية.

ورأى أن القومية العربية لا يمكن أن تنقطع عن الماضي، بل إنها تستمد منه عناصر قوتها ومنعتها، وفي الماضي تراث وحضارة، فماذا يمنع من الاستفادة منهما؟.

ليزعم في شأنهما وقيمتهما من شاء ما شاء، فلن يستطيع أحد أن يزعم أنهما غثاء لا خير فيهما، أو أنهما ماتا مع الزمن الذي مضى. فلماذا لا نستفيد مما فيهما من خير وحياة؟.

وكان يرى أن تقوم القومية العربية على أساس من قيم الإسلام الروحية، وتعاليمه الأصيلة، وتراثه الحضاري الخالد، ورفض أن تكون وعاء للعلمانية، أو أن تكون بديلاً للإسلام، كما ينادي البعث والقوميون العرب.

كما يرى أن الأمة العربية المسلمة هي وحدها المؤهلة للنهوض بالدور الحضاري المرتقب، لحمل حضارة الغد، وعليها أن تأخذ بالأسباب لتحقيق ذلك، لأن المسلمين يحملون عقيدة من أرقى العقائد التي تسهم في بناء الحضارات، فهي عقيدة علم تحترم العقل، وتدفعه دفعاً حثيثاً وراء المجهول ليصير معلوماً. وهي عقيدة خلق إنساني معتدل كريم، يتجافى عن التفريط في العدالة، وعن الإفراط في الرحمة، وهي عقيدة تشريع يهدف إلى اليسر، ويتوخى المصلحة للفرد والأمة والإنسانية، وذات روحانية إيجابية بناءة.

**٦ ـ موقفه من المرأة:**

كان اهتمام السباعي بالمرأة كبيراً، وكان تقديره لدورها في الحياة عامة، وفي الدعوة خاصة، عالياً، فأول من أسلم امرأة (خديجة رضي الله عنها) وأول شهيد في الإسلام امرأة (سمية زوجة الشهيد ياسر) وشاركت المسلماتُ المسلمين في تحمل الأذى من المشركين، فهاجرت أربع منهن في الهجرة الأولى إلى الحبشة، وهاجرت إحدى عشرة مجاهدة في الهجرة الثانية، كما هاجرن إلى المدينة مع المهاجرين، وقاتلت نسيبة بنت كعب الأنصارية (أم عمارة).. تركت سقاية الجرحى، وانبرت تقاتل بالسيف، وترمي بالنبل،

دفاعاً عن النبي ﷺ في معركة أحد، وأصيبت في عنقها، فجرحت جرحاً بليغاً، وكانت مع زوجها وابنيها، ولا يستطيع أحد إنكار دور أم سلمة في غزوة الحديبية، ولا بيعة النساء يوم فتح مكة..

لقد كان للمرأة في عهد النبوة دور مشرق مشرف، فكم خففت خديجة عن رسول الله همومه وأحزانه مما يلقى من قريش، وكم واسته بحنانها، وصرفت على الدعوة من حر مالها «والزوجة الصالحة تذلل كثيراً من الصعاب لزوجها الداعية، إذا شاركته في همومه وآلامه».. شاركن في العيش المرير أيام المقاطعة وحصار المسلمين في شِعْب أبي طالب، وحضرت بيعة العقبة الأولى (امرأتان) وبايعتاه مع الرجال على النصر والتأييد، وهيأت أسماء وعائشة الزاد للنبي ﷺ وصاحبه، وقطعت أسماء قطعة من نطاقها ـ وهو ما يشد به الوسط ـ فربطت به على فم الجراب ـ وعاء الطعام ـ فسميت: ذات النطاقين.

وفي القادسية كانت الخنساء ونساء المؤمنين، وفي اليرموك كانت خولة بيت الأزور من أشجع الفرسان.. وهؤلاء النسوة الفضليات ربين صغار الصحابة والتابعين والفاتحين..

وهذا كله دعا السباعي إلى القول:

«لا بد للحركة الإسلامية المعاصرة من أن تشارك فيها المرأة».

ولهذا لا يرى مانعاً من مشاركة المرأة في عملية الانتخاب، ناخبة ومرشحة، فيقول:

«إذا كانت مبادئ الإسلام لا تمنع أن تكون المرأة ناخبة، فهل تمنع أن تكون نائبة؟

قبل أن نجيب على هذا السؤال، يجب أن نعرف طبيعة النيابة عن الأمة.

إنها لا تخلو من عملين رئيسين:

١ ـ التشريع: تشريع القوانين والأنظمة.

٢ ـ المراقبة: مراقبة السلطة التنفيذية في تصرفها وأعمالها.

وليس في الإسلام ما يمنع أن تكون المرأة مشرعة، لأن التشريع يحتاج، قبل كل شيء، إلى العلم، مع معرفة حاجات المجتمع وضروراته التي لا بد منها، والإسلام يعطي حق العلم للرجل والمرأة على السواء، وفي تاريخنا كثير من العالمات في الحديث والفقه والأدب وغير ذلك، وأما مراقبة السلطة التنفيذية، فإنه لا يخلو من أن يكون أمراً بالمعروف، ونهياً عن المنكر، والرجل والمرأة في ذلك سواء في نظر الإسلام.. فليس في نصوص الإسلام ما يسلب أهليتها للعمل النيابي كتشريع ومراقبة»[1].

ونذكر ـ فيما يلي ـ الفتوى التي شارك السباعي مجموعة من العلماء في إصدارها:

«رأينا بعد المناقشة وتقليب وجهات النظر، أن الإسلام لا يمنع من إعطائها هذا الحق، فالانتخاب هو اختيار الأمة لوكلاء ينوبون عنها في التشريع ومراقبة الحكومة، فعملية الانتخاب عملية توكيل، يذهب الشخص إلى مركز الاقتراع فيدلي بصوته فيمن يختارهم وكلاء عنه في المجلس النيابي، يتكلمون باسمه، ويدافعون عن حقوقه. والمرأة في الإسلام ليست ممنوعة من أن توكل إنساناً بالدفاع عن حقوقها، والتعبير عن إرادتها، كمواطنة في المجتمع»[2].

ومع ذلك يقول السباعي:

«فإني أعلن بكل صراحة، أن اشتغال المرأة في السياسة، يقف الإسلام منه موقف النفور الشديد، إن لم أقل موقف التحريم، لا لعدم الأهلية بل للأضرار

---

(١) المرأة بين الفقه والقانون، ص١٥٦.

(٢) دندل جبر ـ المرأة والولايات العامة، ص١٧٢ نقلاً عن الدكتور منير البياتي: الدولة القانونية، ص٤٧٥ ـ ٤٧٦.

الاجتماعية التي تنشأ عنه، وللمخالفات الصريحة لآداب الإسلام»[1].

ومن أراد الوقوف على تفصيلات آراء السباعي في المرأة ككل، فليرجع إلى كتابه القيم: (المرأة بين الفقه والقانون) ففيه شفاء لما في الصدور.

٧ـ موقفه من الشيعة:

يرى السباعي أن الوقت قد حان لتقارب المسلمين، وتفاهمهم وتعاونهم، بعدما مضى وانقضى ما كنا نختلف عليه، فقد انتهت كل عوامل الفرقة. يقول:

«ومن الواضح أن السبب الذي بدأت به الفرقة، وهو الصراع حول الأحق بالخلافة، ورئاسة الدولة، لم يعد موجوداً في عصرنا هذا، بل منذ عصور كثيرة، فقد أصبحنا جميعاً تحت سلطة المستعمرين، فلم يبق لنا ملك نتقاتل عليه، ولا خلافة نختلف من أجلها، وذلك مما يقتضي جمع الشمل، وتقريب وجهات النظر، وتوحيد كلمة المسلمين على أمر سواء، وإعادة النظر في كل ما خلفته تلك المعارك من أحاديث مكذوبة على صحابة رسول الله وأصفيائه، وحملة شرعه، وحاملي لوائه.

وقد بدأ علماء الفريقين في الحاضر يستجيبون إلى رغبة جماهير المسلمين في التقارب، ودعوة المفكرين إلى التصافي، وأخذ علماء السنة بالتقارب عملياً، فاتجهوا إلى دراسة فقه الشيعة، ومقارنته بالمذاهب المعتبرة عند الجمهور، وقد أدخلت هذه الدراسة المقارنة في مناهج الدراسة في الكليات، وفي كتب المؤلفين في الفقه الإسلامي، وإنني شخصياً ـ منذ بدأت التدريس في الجامعة ـ أسير على هذا النهج في دروسي ومؤلفاتي»[2].

«ولكن الواقع أن أكثر علماء الشيعة لم يفعلوا شيئاً عملياً حتى الآن، وكل ما فعلوه جملة من المجاملة في الندوات والمجالس، مع استمرار كثير منهم في

---

(١) المرأة بين الفقه والقانون، ص١٦١.
(٢) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ص٨.

سب الصحابة، وإساءة الظن بهم، واعتقاد كل ما يروى في كتب أسلافهم من تلك الروايات والأخبار، بل إن بعضهم يفعل خلاف ما يقول في موضوع التقريب، فبينما هو يتحمس في موضوع التقريب بين السنة والشيعة، إذا هو يصدر الكتب المليئة بالطعن في حق الصحابة، أو بعضهم، ممن هم موضع الحب والتقدير من جمهور أهل السنة»[1].

«ولو أنك قرأت وسمعت ما يكتبونه ويقولونه في مجالسهم في حق هؤلاء الأصحاب لقلت: إنهم ـ أي الصحابة الكرام ـ أشبه ما يكونون بعصابة من اللصوص وقطاع الطرق، لا دين لديهم، ولا ضمائر عندهم تردعهم عن الكذب والتآمر والتهالك على حيازة الدنيا، وحيازة أموالهم ولذائذها»[2].

«لو سألتهم: فيم هذا كله؟ لما كان لهم إلا جواب واحد: إننا ندافع عن حق سلب من أصحابه!»[3].

ثم يتساءل بمرارة:

«هل في تاريخ العالم كله، أن أمة شغلت بنزاع بين أجدادها، مضى منذ أربعة عشر قرناً، وقد انتهوا إلى ذمة الله، وهو وحده الذي يحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون؟.

هل في العالم اليوم، أمة تحترم نفسها، وتغار على كرامتها، تشغل بخلاف عفا عليه الزمان، وعن أخطار محدقة بها من كل مكان؟»[4].

«فهلا آن الأوان لأن تقوم فينا مجامع ومؤسسات، لتتبع آثار المؤامرات، وأهدافها، ووسائل تنفيذها!»[5].

---

(١) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ص٩.
(٢) المرجع السابق، ص٨.
(٣) المرجع السابق، ص٤٦٢.
(٤) المرجع السابق، ص٤٦٢.
(٥) المرجع السابق، ص٤٦٣.

«وهل لنا أن ننادي جميع عقلاء المسلمين ومفكّريهم وكتّابهم، ممن لا يتاجرون بالخلافات المذهبية، بأن يلتقوا من جديد، على كلمة سواء: أن يدفنوا آثار الماضي كله، وأن يعملوا على ما يدفع عن أمتهم الأخطار المحدقة بهم من كل مكان، متعاونين بصدق وإخلاص، تعاون الذين لا تعرف الأهواء إلى قلوبهم سبيلاً، ولا الدسائس إلى عقولهم منفذاً، وأن يجعلوا قدوتهم محمداً ﷺ، وهدفهم تخليص المسلمين من أوزارهم وأغلالهم وتبليغ رسالة الإسلام، ونشر هدايته ونوره في العالمين، حتى لا تكون فتنة، ويكون الدِّين كله لله.. اللهم إننا بلغنا فاشهد»[1].

٨ ـ موقفه من الطائفية:

يقول السباعي:

«إذا كان المانع من الاستفادة من الإسلام وحضارته، خوفنا من أن يعود التعصب الطائفي إلى الوجود، فذلك خوف باطل، لأن ذلك المتعصب لم نصفه نحن، ولم يكن له وجود يوم تسلمت قيادة حضارتنا الأيدي الطاهرة، والعقول النيرة، والنفوس المخلصة في إيمانها. ونحن لا نريد أن تقودنا اليوم غير أمثال تلك الأيدي والعقول والنفوس»[2].

ويرى السباعي أن الدعوة إلى ترك الدين كعلاج للطائفية، غفلة قاتلة لا تقع فيها أمة واعية، ثم إن الفرق بين الدين والطائفية، هو فرق ما بين العلم والجهل، والحق والباطل، والخير والشر، والإيمان والعصيان «الدين إخاء وتعاون ولقاء، والطائفية عداء وتقاطع وجفاء. الدين حبٌّ ورحمة وسلام، والطائفية كرهٌ وقسوة وخصام.. الدين وفاء وحسن خلق وسلام، والطائفية غدرٌ وسوء خلق، وخبث نفس، وقذارة يد.. الدين شرعة الله ورسالته، والطائفية شرعة الشياطين ووسوستهم.. الدين هداية الرسل إلى الله، وطريق الناس إلى الجنة.

---

(١) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ص٤٦٣.
(٢) انظر: أخلاقنا الاجتماعية، ص٨٩ـ٩٠.

والطائفية قيادة الأشرار إلى الدمار، والطريق المستقيم إلى النار».

**٩ ـ موقفه من المعتزلة:**

«والمعتزلة قوم فتنتهم الفلسفة اليونانية، والمنطق اليوناني، وما نقل من الفلسفة الهندية والأدب الفارسي، وقد كانوا كلهم أو جمهورهم ممن يمتّون إلى أصل فارسي، فأوّلوا القرآن لينسجم مع الفلسفة اليونانية، وكذّبوا الأحاديث التي لاتتفق مع هذه العقلية اليونانية الوثنية، واعتبروا فلاسفة اليونان أنبياء العقل الذي لا خطأ معه»[١].

«كانوا ـ أي زعماء المعتزلة ـ من الرقة في الدين، بحيث يصف أحدهم ـ ثمامة بن أشرس ـ جمهور المسارعين إلى الصلاة بأنهم حمير.

وكانوا من الشعوبية والكره للعرب بحيث يقول ثمامة نفسه: انظر إلى هذا العربي ـ يعني محمداً ﷺ ـ ماذا فعل بالناس؟»[٢].

**١٠ ـ موقفه من الانقلابات العسكرية:**

موقف السباعي من الانقلابات العسكرية موقف صلب، وقف ضدها بصلابة، وأبى أن يتعاون معها، وتعرّض للأذى، والاعتقال، والتعذيب، والتسريح من العمل، ثم النفي من البلاد وهو رافض للتعاون معها، على الرغم من العروض السخية التي عرضها الانقلابيون عليه، «لإيمانه أن السبيل الوحيد للإصلاح أياً كان، إنما هو الفكر الحر، والمنطق العلمي المبني على الحجة المفحمة، وهذا ما دفعه إلى استنفاد مجهوده في سبيل إقناع (أديب الشيشكلي) بإعادة الحياة البرلمانية إلى البلاد»[٣].

فما كان من الشيشكلي إلا أن يعتقله في معتقل المزة، وأن يصادر حرية

---

(١) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ص٧.

(٢) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ص٦.

(٣) محمد المجذوب: علماء ومفكرون: ١/ ٣٨٦.

جماعته، فأغلق مراكزها، ووضع رجالها تحت المراقبة الشديدة، ثم أخرجه من السجن، وأبعده عن البلاد.

كان السباعي ضد سائر أشكال الاستبداد، وقد أنكر علة من زعم أن السيد جمال الدين الأفغاني كان يقول: «ما أحوج الشرق إلى مستبد عادل» إذ لا يمكن أن يجتمع الضدان: الاستبداد والعدل.

إنه يقر بتعددية سياسية قائمة على مدارس فكرية متعددة، حتى لو كانت تمس بالعقيدة الإسلامية[(١)] ويكون تفنيدها، بالرد عليها، وبيان زيفها وبطلانها، بالحجة والبرهان، وميدان هذا النقاش هو الكتب، والحلقات الدراسية، والمجالس العلمية فحسب، لا السيف ولا السجن[(٢)].

هذا لأن النظام الإسلامي ـ عنده ـ شوري، مدني، يعتمد على الانتخاب، ويسعى لتحقيق العدل بين الناس، والناس أحرار في نقد الحاكم، وعدم طاعته إذا أمر بمعصية الخالق[(٣)].

### ١١ ـ موقفه من الاقتصاد:

كان الإصلاح الاقتصادي من أولويات السباعي، لأن الاستقلال الاقتصادي أساس للاستقلال السياسي، وبالإصلاح الاقتصادي الذي شرح نظريته في إسهاب وتفصيل في كتابه البديع (اشتراكية الإسلام) تتجنب البلاد ما نادى به الاشتراكيون فيما دعوه (الصراع الطبقي) الذي يفرّق الشمل، ويمزق الشعب.

ولهذا شكل (الجبهة الاشتراكية الإسلامية) في برلمان ١٩٥٠ ودعا إلى سن قوانين اقتصادية تحول دون الصراع الطبقي، وتقارب بين الفئات الغنية والفقيرة، وهو يرى «أن اشتراكية الإسلام لو طبقت في مجتمعنا، لاستفاد منها

---

(١) اشتراكية الإسلام، ص٨٢.
(٢) اشتراكية الإسلام، ص٨٤.
(٣) باروت ـ مرجع سابق، ص١٢٠.

جميع المواطنين، من مسلمين ومسيحيين، إنها ثروة تشريعية رائعة، لو أشرفت على تطبيقها عقول مرنة، نيرة، لكان لنا منها أروع نظام يستهوي القلوب والأنظار، فمن الخطأ الكبير تجاهلها في نهضتنا الحاضرة»[١].

**١٢ ـ موقفه من البدع:**

ولد مصطفى السباعي ونشأ وترعرع في بيت علم ودين، يتلى فيه القرآن العظيم، وتقام مجالس العلم، ويدور النقاش حول قضايا فقهية، وحديثية متنوعة، والسباعي الفتى يسمع ويعي ما يسمع، ويتشبّع بروح الإسلام، وحقائقه الصافية النقية، ثم يخرج إلى مجتمع المسلمين، فيهوله ما يرى من جهل، وبدع، ما عرفها الإسلام، ولا أقرها العقل، فبادر إلى انتقادها علناً وعلى رؤوس الأشهاد، فثار عليه من ثار من الجهلة المتخلفين المبتدعين في الدين، المسيئين إلى عقيدته وعباداته، ولكنه لم يأبه لهم، وسار في طريقه اللاحب، غير هياب ولا وجل، حتى قضى على كثير منها، نذكر منها بدعتين:

**١ ـ خميس المشايخ:**

«كان الصوفيون يجتمعون في حمص في يوم خميس من شهر نيسان من كل عام، أسموه خميس المشايخ الصوفية، مع أعلامهم وطبولهم، ويجري فيه كثير من البدع والمخالفات الشرعية، وكان السباعي يتصدى لهم بخطبه ومحاضراته لمنع تلك البدع، حتى أطلقوا عليه لقب (ابن تيمية الصغير)، لأنه كان ينكر، كما كان ابن تيمية ينكر من قبل، تلك البدع التي لا تمت إلى الإسلام بصِلَة.

وقد لقي السباعي العنت والاتهام بالإلحاد والمروق من الدين بسبب هذه المواقف، كما حاولوا قتله أكثر من مرة.

وقد أعانه أبوه ووقف معه في هذا»[٢].

---

(١) اشتراكية الإسلام، ص١٩.
(٢) زهير الشاويش ـ هامش في كتاب (السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي: ج ـ د.

كما كان السباعي كتب مقالة ـ في وقت مبكر من حياته المليئة بجلائل الأعمال ـ عن بدعة (أسبوع المشايخ) في حمص، فوجدتني تلقاء روح تحترق غيرة على حقائق الإسلام، أن تحجبها ظلمات عصور الضياع والانهيار»[1].

٢ ـ ليلة النصف من شعبان:

وقد تحدث عنها في برنامجه الإذاعي الأسبوعي الذي كانت تبثه إذاعة دمشق تحت عنوان (من أحاديث الدعوة) وفيه يقول عن دعائها المشهور:

«وإذن.. فهذا الدعاء من صنع المئات المتأخرة.. وهو من الناحية الشرعية غير جائز، ففيه الزعم بأن ليلة النصف من شعبان، هي التي يفرق فيها كل أمر حكيم، وهذا زعم باطل باتفاق جمهور العلماء، وفي هذا الدعاء، نسبة المحو والإثبات إلى الله في أمِّ الكتاب، وهو محال عليه، وعلم الله لا يتبدل ولا يتغير، ومن زعم غير ذلك، فقد نسب إليه الجهل أو التردد، وكلاهما على الله محال»[2].

موقفه من الفن:

مصطفى السباعي ابن عصره، عرف زمانه، واستوعب تياراته، من خلال رؤية إسلامية واعية، لا تبهره المظاهر، ولا يخدعه المخادعون والمنافقون والدجالون، الذين يروجون للفنون الرخيصة، ويزينونها للمراهقين والمراهقات جنسياً وعقلياً وفكرياً، وسوف أنقل بعض ما قاله في فنون: الغناء، والرقص، والموسيقى، والتصوير، وما إلى ذلك من فنون، لتنبئ عن موقفه. قال:

١ ـ الفن قيثارة الشيطان[3].

٢ ـ إسرائيل لا تعدُّ لغزونا فرقاً من الراقصات والمغنيات والرسامين،

---

(١) محمد المجذوب ـ علماء ومفكرون عرفتهم: ١/ ٣٨٣.
(٢) علماء ومفكرون عرفتهم: ١/ ٤٠٩.
(٣) هكذا علَّمتني الحياة: ١/ ٢٠.

ولكنها تعدّ فرقاً من الفدائيين، وأساطيل في الجو والبحر، وقذائف للهلاك والتدمير، فهل يفهم (المنحلون) و(المتآمرون) و(الكسالى) و(الوجوديون) و(المستغربون) و(المفتونون)؟[1].

٣ ـ خذ من أمتنا مئة مصور، وأعطها طياراً واحداً، وخذ منها ألف مغن وأعطها مخترعاً واحداً، وخذ منها كل العابثين واللاهين، وأعطها مُجِدّاً واحداً[2].

٤ ـ نحن في حاجة إلى مخترعين ومخترعات، أشد من حاجتنا إلى فنانين وفنانات، ومع ذلك، فكل الجوائز وكل الفرص، وكل الأنوار تسلط على هؤلاء، ويحرم منها أولئك. وما رأيت يوماً جائزة خصصت لشاب مكتشف أو مخترع، وأرى كل يوم عشرات الجوائز للشباب المتفوقين بالرسم والتصوير والموسيقى والغناء، فهل هذا دليل على جدنا في الانضمام إلى ركب الحضارة، والخلاص من أعدائنا المتربصين؟أم نحن قوم غافلون، أو مخدوعون، أو مضللون؟[3].

٥ ـ ليس أسهل على نفوس الشباب، في أمة حديثة الوعي، من إغرائهم بالشهرة عن طريق الفن والرقص، وهذا هو سر استجابتهم لإغراء خرافة الفن، واستمتاعهم بلذته[4].

٦ ـ وجدت الأمم اللاتينية أكثر براعة في الفن، وأقل تقدماً في العلم، وأسرع هزيمة في الحرب.

ووجدت الأمم الإسكندنافية والسكسونية أقل براعة في الفن، وأكثر تقدماً في العلم، وأشد استعصاء على الهزيمة في الحرب.

---

(١) هكذا علمتني الحياة: ١/ ٧٧.

(٢) المرجع السابق: ١/ ٧٨.

(٣) هكذا علمتني الحياة: ١/ ٧٨.

(٤) المرجع السابق: ١/ ٧٥.

فهل يريد الذين يشجعون فينا الفن على حساب العلم، أن ننهزم في الحرب، ونتأخر في استكمال وسائل القوة؟[١].

٧ ـ الانصراف إلى الفن شغل الذين تم لهم البناء، أما الذين لم يبدؤوا بالبناء بعد، أو بدؤوا متأخرين، فمن أكبر الجرائم صرفهم عن الاهتمام في تقوية البناء، إلى الاهتمام بالرسم والغناء، وعن الاختراع، إلى رقص الإيقاع، وعن صنع الحياة، إلى (رسم الحياة)[٢].

٨ ـ لم تهزم أمة أمة أخرى بالفن، ولكنما هزمتها بالقوة، ومن التضليل أن يعتبر الفن من وسائل القوة[٣].

٩ ـ إذا كان الفن يصقل المواهب، وينمي الشعور بالجمال، فإن الأمة المحاطة بالأعداء، في حاجة إلى ما يفتل السواعد، ويلهب الإيمان، ويقوي الأخلاق، ويفتح العقول، ويدفع عن الأمة خطر الإبادة أو الاحتلال[٤].

١٠ ـ سلوا التاريخ: هل أفل نجمنا إلا يوم سطعت نجوم المغنين، وقويت دولة الراقصات في سماء حضارتنا؟[٥].

١١ ـ أي عاقل مخلص يود أن يكون لنا نجوم في التمثيل والتلفزيون، ومُجَلُّون في الرسم والغناء، قبل أن يكون لنا أبطال في الحروب، وعلماء في المختبرات، ومخترعون في الصناعات، وأقوياء في الإيمان والأخلاق؟[٦].

١٢ ـ أيها العابثون المراهقون، أيها الفنانون والمغنون والراقصات..

---

(١) هكذا علمتني الحياة: ١/ ٧٥ ـ ٧٦.
(٢) المرجع السابق: ١/ ٧٦.
(٣) المرجع السابق: ١/ ٧٦.
(٤) المرجع السابق: ١/ ٧٦.
(٥) المرجع السابق: ١/ ٧٧.
(٦) المرجع السابق: ١/ ٧٧.

ستكونون أول من ينهزم في معارك البطولات، وستكونون أول من يفر منها، إذا لم تحيوا قلوبكم بالإيمان، وتفتحوا عقولكم بالعلم، وتسموا بنفوسكم بالأخلاق، قبل أن تنمُّوا أذواقكم بالفن، وترضوا شهواتكم بالرقص والغناء[1].

١٣ ـ أليس من دواعي الأسى، أن تكون لإسرائيل صواريخها، ومفاعلها النووية، ويكون لنا تلفزيون، وفرق للرقص والتمثيل، وليس لنا صواريخ، ولا أفران ذرية؟[2].

١٤ ـ هاتوا لنا جميع الرسامين والممثلين والمغنين والراقصات والراقصين ثم احشدوهم جميعاً، وانظروا: هل يردون عنا خطر قنبلة ذرية، أو صاروخ موجه؟[3].

١٥ ـ هل يشفي المريض المدنف باقة من الزهر، أم حقنة من البنسلين؟

وهل يكفي الجائع لحن مطرب، أم رغيف مشبع؟

وهل يسعد الفقير أن تزين له جدرانه بالرسوم، أم أن تهيِّئ له ما يحتاجه من أثاث؟

وهل يخاف منك العدو إذا كنت تحسن الرقص، أم إذا كنت تحسن صناعة الموت[4]؟.

١٦ ـ وبين الدكتور السباعي وجهة نظره فيما كتب فقال:

«ليست هذه حملة على الفن بمعناه العلمي.. ولكنها حملة على هذا الغناء الماجن المنحل، وعلى هذا الرقص الفاجر المثير، حين يطلق على هذا وذاك اسم (الفن) ويذهبون إلى تمجيده، والإشادة به، وتسليط الأضواء على كل

---

(١) هكذا علمتني الحياة: ١/ ٧٧.
(٢) المرجع السابق: ١/ ٧٩.
(٣) المرجع السابق: ١/ ٧٩.
(٤) المرجع السابق: ١/ ٧٩.

ماجن مستهتر، استهواء لشبابنا وفتياتنا، في وقت نحن أحوج ما نكون فيه إلى استهوائهم بالبطولات في مختلف ميادينها.

أما الرسم، فمع تسليمنا بأنه نوع من التعبير الإنساني عن حقائق الحياة، ننكر إعطاءه هذه الأهمية البالغة، كما يفعل الغربيّون، فديننا، وحضارتنا، وعقليتنا التي تقدر حقائق الأشياء لا مادتها، تختلف عن الغربيين في مختلف أدوار حضاراتهم القديمة والحديثة، في هذا الأسلوب من التعبير عن القيم والحقائق، إذ ينبغي أن تفهم خواطره في هذا الموضوع، فنحن نعالج انحرافاً خطيراً، واتجاهاً مريباً، نجد من الخيانة السكوت عنهما.

كما ننكر الدعاية له، على أنه كل شيء في حياة الأمم، وأساس كل نهضة فيها، ونعتبر ذلك من مظاهر عقدة النقص التي يعانيها جيلنا المعاصر، تجاه الحضارة الغربية، مع أن أمتنا ـ في هذه المرحلة الخطيرة من مراحل نهضتنا ـ في حاجة إلى القوة، والعلم، والخلق النبيل الذي يبثه الإسلام في نفوس جماهيرنا، على هذه الأسس الجميلة في الحياة[١].

ويقول السباعي في موضع آخر:

«ليس الفن كله شراً، بل منه ما هو خير، ومنه ما هو شر، والشر منه، هو ما يهيج الشر»[٢].

* * *

(١) هكذا علمتني الحياة: ١/ ٧٥ـ٧٦.

(٢) المرجع السابق: ١/ ٩٤.

# السباعي خطيباً

لم يعرف عالَمُ الخطابة ـ في العصور العربية الحديثة ـ أخطب من الدكتور مصطفى السباعي، ولا أبلغ بلاغة، ولا أفصح فصاحة، ولا أشدّ تأثيراً منه في سامعيه، فكانت له يدٌ بيضاء في السموّ بها إلى مرتقى سامق، لم تبلغه من قبل، ولم تشهده من بعد، برغم ما أفاد من براعته من جاء بعده، وحاول تقليده، أو الخبَّ في مسالكه، ولكنه لم يبلغ شأوه.

كان السباعي ـ الخطيب المصقع ـ يبثّ في الناس، كلّ الناس، روح الحرية، والكرامة، واستقلال الشخصية، والعزّة النفسيّة. بما أوتي من فصاحة لا يبعد بها عن مألوفهم، ولا يتناءى عمّا عرفوه، فلم يعلُ على مداركهم، إلا ليرتفع بها شيئاً فشيئاً، فأحبّوه، وعشقوا خطابته التي تصعد بهم في مدارج الخيال والذكريات، ثم تعود بهم إلى الواقع المعيش، فتهزّهم هزّاً بجزالة ألفاظها، وجمال عباراتها، وجلال معانيها التي كانت تدغدغ مراكز الشموخ والكرامة في نفوسهم، فما كانت لفظة (الكرامة) لتغيب عن خطبة من خطبه الشمّاء، وكذلك كل معنى شريف من معاني الحرية، والشهامة، والأخوة، والحبّ، والجرأة والإقدام، والشجاعة والكرم، وسائر مبادئ الإسلام، وتعاليمه، وقيمه الأصيلة.

كان يأسر سامعيه بأسلوبه الفذّ الذي كان يستخدم ألوان الفصاحة والبلاغة دونما تكلف، فقد كان يستهويهم بتصرفه في فنون القول، ويثير مشاعرهم، وهو يتنقّل بهم، من التقرير إلى الاستفهام، ومن التهكم والسخرية المهذبة إلى التعجب، ومن الجدّ إلى الدُّعابة التي تصبّ في بؤرة الشعور، وتخدم الموضوع الذي هيّأ له نفسه، و حشد ما حشد من ألوان التأثير على المشاعر والأحاسيس،

فلا يصيب جماهير السامعين سأم أو ملل، ويستمرون مشدودين إلى الصوت العذب، وإلى السمت الساحر، وإلى المعاني التي لم يسمعوها من قبل، في الصورة التي يعرضها هذا الخطيب الذي يشعل في القلوب حرائق، بما يسرد من حقائق، بلهجة صادقة، ونبرة رائقة، واتزان، وسموق يملأ النفوس بما يسمو بها نحو الهدف الذي يرمي إليه الخطيب، فتقتنع العقول، وترتاح القلوب، فلا تحيد له رماية عن مرماها.

ولعل الناس في أرض الكنانة ما يزالون يتناقلون فيما بينهم، ويروون لحفدتهم عن ذلك الخطيب الشامي (السباعي) الذي جاء مصر شريداً من بلاده، ووقف يخطب في الجماهير الحاشدة، وفيهم رجال (الثورة) فألهب الحناجر بالهتاف والتكبير، ولعب بالعقول، واستثار العواطف، فما كان من رئيس الجمهورية (محمد نجيب) إلا أن يخلع قبعته العسكرية، ويقذف بها في الهواء وهو يهتف مع الهاتفين: الله أكبر ولله الحمد، فقد بهره السباعي، وبهر سائر الحاضرين، بهذه العبقرية الخطابية، بهذا اللسان القوي، بهذه الفصاحة الفصيحة النادرة.

كان السباعي يرتجل خطبه، فتعجب لهذا الارتجال الذي يأتي مسدّداً في أسلوبه، ومعانيه، وفي إصابة الهدف في نفوس سامعيه، من دون أن تقع له على هفوة لفظية، فقد كان قمّة في التجويد في اللغة وعلومها، فلا ينبو عن سمعك بخطأ نحويّ، أو صرفيّ، أو لغويّ، أو بلاغيّ، ولا تتجافى جنوب عقلك وقلبك عن معنى مبتذل، أو غاية غير نبيلة.

كان يرتجل خطبته، وأنت تظنّه قد أتعب نفسه في التحضير لموضوعه، واختيار ألفاظه وعباراته، والتنقيب عن أفكاره ومعانيه، وقد يكون الموضوع ابن لحظته، لم يُعِدّ له ولم يستعدّ، ولكنه وُضع في موقف مرتهن، فبادر إلى فكّ الرهان، بما آتاه الله من فصاحة اللسان، وحصافة العقل، وذكاء القلب، وجمال السَّمت، وجلال النفس، وعذوبة الصوت، وأسر موسيقاه، وحضور البديهة التي تحتوي ما قد يجدّ على الموقف.

أذكـر أنه في (يوم الحِدَاد العام) الذي أقامه الإخوان استنكاراً لمذبحـة الدعاة في مصر عام ١٩٥٦ وفيماكان السباعي يعتلي منبر الجامع الأمويّ الذي غصّ بعشرات الآلاف، ويدوي صوته الجهوري في جنبات الأموي وما حوله، نهض (شـيخ) وصار ينعق بصوت كصوت البـوم، يعترض على هـذا الحفل الحاشد، ويبرر لفرعون طغيانه وقتله الدعاة، ولكنّ صوت السباعي الهادر، ذهب بذلك الغثاء، وقذف به إلى بعيد، وهو يروي قصّة بعض مشايخ السوء، مشـايخ السلطان والشـيطان، الذين باعوا دينهم، وأخلاق الرجال، وكرامـة العلم، بلعاعة من دنيا الظالمين. . كان موقفاً حرجاً، ولكن السباعي الخطيب الإعصار، قذف به إلى بعيد، فلم يسمع له أحد، وكان كالزّبد.

كان السباعي يخطب الساعة والساعتين والساعات الثلاث والأربع، يتدفق الكلام الحلو من الفم الحلو في سائر أحواله، حتى وهو يرغي ويزبد كداعية حرب ونزال. . وهو في البرلمان يحاول إقناع زملائه النواب. . وهو يخطب في جماهير المتظاهرين. . وهو يخطب في المسجد خطبة الجمعة. . وهو يردّ على بعض السياسيين. . وهو يردّ على بعض المفكّرين المنحرفين. . الكلمات القوية. . والمعاني الراسـخة. . وحركـات اليد، والقبضـة الحديديـة التي ترافق تلك الكلمات والمعاني، والصرخة الحرّة الأبية، والنّبرة التي تأتي عالية حيناً وحيناً حييّة. . كانت من بعض مقوّمات خطابته، وعناصر نجاحه فيها.

ونضرب مثالاً على خطبـه المرتجلة، فعندما وقف على قبر أمير البيـان: شكيب أرسلان، ساعة دفنه في العاشر من كانون الأول ١٩٤٦ ارتجل كلمـة بدأها بتسعة أبيات رائعة، كانت بنت لحظتها، ثم خاطب الفقيد بقوله:

إيه أبا غالب!.

يا مالئ الدنيا وشاغل الناس!.

يا من كنت إلى آخر أيامك في الحياة، تنصح وترشد، وتعلّم وتوقظ، فما عرف فكرك الجمود، ولا جسمك الراحة، ولا قلمك الركود، وإنما كنت ثورة جامحة، تزلزل أركان الاستعمار، بما تنفحه في العرب والمسلمين من آيات هي

النّور والنار، وهي القوة والحياة، فكافأك العرب والمسلمون بالحبّ والإعجاب، وعاقبك المستعمرون بالتشريد والاغتراب.. أمّا هؤلاء فقد رأوا بأعينهم أنّ ما بيّتوه لهذه الأمة من كيد أفسدته عليهم الأقدار، وأمّا أنت، فلقد رأيت في حياتك ثمرة جهادك.. لقد رأيت أوطان العروبة تحطّم القيود، وتسير نحو المجد، وبلاد الإسلام تسري فيها هزّة عنيفة من اليقظة والوعي والنهوض، وها أنت يا أبا غالب، تُدفن في أرض تحررت من الأجنبي، فلم يبق له فيها جيش ولا مستشارون، ولا سلطة ولا أمر، ولطالما أعلنت على جيش الاستعمار وسلطانه حرباً عواناً، وكنت لآمال قومك في الجلاء حجّة وتبياناً. ولو قُدّر لك أن تعود إلينا لحظات، لرأيت هذه الجموع تبكيك بكاء الثكلى، ولرأيت في بلاد العروبة والإسلام مناحات ومآتم، وقد خلّف نعيك في كلّ عين دمعة، وفي كلّ قلب حسرة، وفي كل نفس زفرة، فسلامٌ عليك في الأولين، وسلام عليك في الآخرين، وسلام عليك إلى يوم الدين».

ثم التفت إلى المشيّعين وقال:

«يا أيها المسرعون بفقيد العروبة والإسلام تمهّلوا قليلاً.. رويدكم لا تعجلوا.. إنكم لا تحملون على أعناقكم رجلاً، وإنما تحملون جيلاً من المفاخر، أعيا التاريخ إحصاؤها وتسجيلها.

وإنكم لا تدفنون إنساناً كسائر الناس، إنما تدفنون أمّة، وتغيّبون في أطباق الثرى آمال شعوب، ورجاء أجيال، كانت كلها ترى في الأمير إمامها، وعلمها، وباعث نهضتها، ومبدّد ظلمات حياتها».

ونختم هذه الخطبة المرتجلة الرائعة بقوله:

يا روح الفقيد العظيم!

انطلقي اليوم في دنيا الخلود، فلطالما كنتِ في هذه الدنيا حبيسة سجينة، وغرّدي ما شئتِ أن تغرّدي، فلطالما كان تغريدك في دنيانا أملاً، وبعثاً، وإيقاظاً.

وانطلقي - يا روح الفقيد - في عالم لا يعرف الظلم، ولا البغي، ولا المكر،

ولا العدوان، وابحثي عن أرواح أبطالنا الخالدين، فبلّغيهم الشكوى، وبثّي إليهم الأحزان، وانقلي إليهم من دنيانا ما يكون أعجوبة الأعاجيب في عالمهم!

غرّدي يا روح الأمير، وانطلقي، وارتعي، ثم رفرفي علينا دائماً وأبداً، وذكّرينا الدين في أسمى معانيه، والوطنيّة في أقوى مظاهرها، والعلم في أوسع آفاقه، والوفاء في أروع آياته.

سلام عليك يا روح الأمير، ورحمة الله ورضوانه وبركاته»[1].

وارتجل الدكتور السباعي كلمة قيّمة، في حفل الوداع الذي أقامه له الطلبة المسلمون في لندن، مساء ١١/٨/١٩٥٦ خاطب في ختامها الشباب المسلم الدارس في الغرب، فقال: «أجل، إن الإسلام خطر على الاستعمار الذي امتصّ دماء المسلمين، وأذلّ كرامتهم، والذي شتّت العرب، ومزّق وحدتهم.. خطر على اللصوصية التي تتقنّع بالعلم والحضارة، لتسلب العرب والمسلمين أقوى وأعزّ ما يملكون في الحياة من تراث وسلاح.. ومن أجل هذا، نحن مصمّمون على أن نستعمل هذا السلاح في وجوه الغزاة واللصوص.. مصمّمون على أن نحمل الإسلام، لنطرد الغاصب من أرضنا، ونثبت القوة في نفوس أبناء أمتنا، ونعيد السبيل لحياة حرّة كريمة فاضلة، ومجتمع سعيد غني عزيز، فإذا أصرّ بعض الناس ـ يا شباب الإسلام ـ على أن يحاربوكم من أجل هذا الإسلام، لأنه سلاح خطير يرهب الغربيين، فليكن جوابكم: إن الأمّة الجادّة في معركتها مع أعدائها، تسلك كل سبيل لتخويفهم وإرهابهم.

ثم صرخ:

أمامكم ـ يا شباب الإسلام ـ معركتان:

معركة مع أعدائه في الخارج، ومعركة مع بعض المقيمين على أرضه في الداخل.. وإن لديكم قوة كبيرة تملكونها وحدكم، ولا يملكها خصومكم ولا أعداؤكم.. إنها قوّة الله.. إنها قوّة الإيمان بالله، التي أخرجت آباءكم من

---

(١) مجلة حضارة الإسلام ـ العدد الخاص ـ السنة الخامسة: ١٩٦٤.

جزيـرتهم، فجعلتهم ـ وهم الحفـاة العراة ـ وجهاً لوجـه أمام المتحضّريـن المترفين، ثم لم يكن النصر إلا لهم، ولم يكن الخلود إلا إكليلاً على رؤوسهم وحدهم.

لقد وقفنا في التاريخ وجهاً لوجه مع أعداء الحقّ والإنسانية، فانتصرنا عليهم، وكنّـا أفقر الناس، وكانـوا أغنى الناس. . انتصر الفقـر على الغنـى، والبداوة على الحضارة، والصحراء على العواصم، لأننا كنّا نحمل وراء مظاهر الفقر والبداوة عقـولاً متحررة من الخرافة، وقلوباً ممتلئة باليقين، وبصائـر لا تـرى الحياة من خلال الخمرة والمرأة والدرهم والدينار، وإنما تـراها من خلال الخلق الكريم، والرجولة النبيلة. . إنها بصائر لا تمتدّ إلى تراب وأحجار، بل إلى جنّة عرضها السماوات والأرض، تجري من تحتها الأنهار»[1].

ومثال ثالث على خطابته، هذه الشذرات من خطابه التاريخي الذي ألقاه في (مؤتمر الجمعيـة الإسلامية لنصرة الجزائر) في لندن: «إننا ـ نحن العرب والمسـلمين ـ قد أفقنا على واقع مؤلم في بلادنا، وفي آذاننا صوت الإسـلام ينادينا، فيطالبنا بالعمل في سبيل حياة سعيدة كريمة، وأمام أبصارنا أممٌ تحرص على حريتها ببذل الغالي والثمين من شبابها ودمائها، فصمّمنا على أن نتحرر، وعلى أن نعيش في بلادنا، نقرر مصائرنا بأنفسنا، ونساهم في بناء الحضارة الإنسانية التي تخلّص العالم من آفات الفزع والقلق والظلم والاستغلال، وقد تحرّرت منا أقطار ولا تزال أقطار رازحة تحت وطأة الاستعمار، محرومة من التمتع بخيراتها، والإشراف على شؤونها، فإذا وقفت الجزائر اليوم وقفتها الجبّـارة، تريد أن تنال اسـتقلالها، وإذا وقف العرب والمسـلمون في قضية فلسطين، يريدون تحريرها واسترادادها، وإذا قامت في كلّ بلد عربي أو إسلامي حركة من حركات التحرر، فثقوا أننا جادّون غير هازلين، وأننا لن نغمض أعيننا للنوم مرة أخرى.

---

(١) جريدة الشهاب: ٧٠.

إن القوى الاستعمارية قد تتغلّب على جهودنا وحركاتنا فترة من الزمن، ففرنسا قد تتغلّب على الجزائر اليوم، ولكننا نصار حكم القول، بأنه من المستحيل أن تظل فرنسا إلى الأبد، تحتل الجزائر، وتجعل خيراتها نهباً مقسماً بين الفرنسيين المقيمين فيها. . إن من المستحيل أن يعود الاستعمار إلى التحكم في مصائرنا، كما كان من قبل، وسنستمر في المكافحة لكل استعمار، ولكلّ عدوان، حتى ينتصر حقنا، وتعود إلينا حريتنا. . فإذا أردتم السلام ـ أيها الغربيون الأحرار ـ فاصنعوه بأيديكم لا بألسنتكم، اصنعوه بنصر الحق، وتفهّم الواقع، ولو كان مُرّاً على نفوسكم. . اصنعوه بالخضوع إلى الله فيما أمر من العدل، ونهى عن الظلم، لا بالخضوع للشيطان فيما يوسوس به من بغي، وما يزيّنه في النفوس من جشع ونهم وعدوان. . حقّقوا السلام في نفوسكم ونفوس قادتكم، قبل أن تدعوا شعوبنا إليه.

إن المعتدي السفّاك للدماء، لن يكون أبداً من أبطال السلام، فكيف تريدوننا على أن نؤمن بدعوتكم للسلام، وأنتم تؤيّدون فرنسا في عدوانها الوحشي على شعبنا في الجزائر، وتتجاهلون حقنا في فلسطين، وتسمحون بقيام دولة معتدية على حساب تشريد شعب من أرضه، وتجريده من ثروته، وتعريضه للموت، أو للجوع والأمراض!.

ثم يهتف عالياً:

يا أصدقاءنا الأحرار في عالم الغرب.

تعالوا ننقذ الموقف قبل أن يفلت زمامه من أيدينا وأيديكم.

تعالوا نعمل للحقّ، ونمتثل لأوامر الله.

تعالوا نهتف للحرية والأحرار.

تعالوا نهتف لشعب الجزائر المكافح، ولأبطاله المجاهدين»[1].

---

(١) جريدة الشهاب العدد (٥٤) في ١٧/ ١٠/ ١٣٧٥.

# أبو الفقراء والمساكين

كان السباعي بمثابة الأب الحاني لسائر الفقراء والمساكين والمحتاجين، والمعوزين والعجزة والأيتام والأرامل، ومن يشبههم من أبناء المجتمع السوري، قد أهمّته أمورهم، وشغلته قضاياهم، في وقت مبكر من حياته الخصبة المليئة بجلائل الأعمال، فقد حارب سائر أشكال الظلم الاجتماعي، وحاول إصلاح الخلل في المواضعات الاجتماعية الجائرة، فعمل على القضاء على البطالة السافرة والمقنّعة، وعلى معالجة مشكلة غلاء المعيشة، وارتفاع الأسعار، ومحدودية الدخل، وغلاء الإيجارات، وقانون الإيجار، ومكافحة الجهل، والجوع، والبؤس، والمرض، والأميّة، فأنشأ المدارس الليلية للفقراء، وخصص يوماً للفقير في كل عام، وأنشأ لجاناً لجمع التبرعات والإعانات، وتوزيعها على المحتاجين، وشكل لجنة دائمة لذلك، أطلق عليها اسم (اللجنة التعاونية) وكان حرباً على سائر أشكال التخلف في الريف والأحياء الفقيرة في المدن، وقد أنشأ عدّة لجان لذلك، كاللجنة الثقافية، ولجنة مكافحة الأمية، واللجنة العمالية، واللجنة الطلابية، واللجنة الطبية، والجمعيات الخيرية، وتبنى مفهوم الاشتراكية الإسلامية منذ عام ١٩٤٩م عندما كان عضواً في الجمعية التأسيسية التي صاغت الدستور السوري عام ١٩٥٠م، وعندما صارت هذه الجمعية برلماناً شكّل (الجبهة الاشتراكية الإسلامية) منطلقاً من أن الإصلاح والعدل الاجتماعيين يمثلان ركيزتين أساسيتين للفكر الإسلامي الذي يدعو إليه الإخوان المسلمون، ويتبنونه.

وقد دعا في كتابه القيم (اشتراكية الإسلام) إلى التكافل الاجتماعي لسد الاحتياجات المادية والأدبية للفقراء، واليتامى، والمسنين، والعجزة، ومن

أرهقتهم الديـون (الغارمين) والمحتـاجين إلى السـكن، وأبناء السـبيل الذين انقطعوا عن أهلهم وبلادهم، والعزاب الذين لا يجدون المال الذي يـوفر لهم حياة زوجية كريمة.

وكان يرى أن تنهض الدولة بكفالة هؤلاء، وإن لم تكف مواردها، فلها أن تصادر ما هو ضروري ولازم للحياة الكريمة، في مجتمعنا الذي ينبغي أن يتصف بالكفاية والعدل، ويوفر الحرية والكرامة لسائر المواطنين.

وعلى الدولة أن تقضي على كل الأسباب التي تحول دون ذلك، عليها أن تقضي على الاحتكارات، والربـا، والقمار، وسـائر أشكال الظلم، والفسـاد الإداري.

**مع العمل والعمال:**

شـرح السباعي ـ في كثير من كتاباته ـ قيمة العمل في الإسلام، وحضـه عليه، وتكريم العمال، ولذا دعا السباعي إلى إنصاف هذه الشريحة الكبيرة من العمال، ورفع مسـتوياتهم المادية، والاجتماعية، والخلقية، وناقـش قانون العمل في البرلمان، وأثناء وضع الدستور السوري عام ١٩٥٠م الذي كان «أول دستور عربي يتحدث عن شؤون الفلاحين، والعمال، والضرائب التصاعدية، وتحديد الملكية الزراعية، والضمان الاجتماعي»[١].

«وقد ظل دستور ١٩٥٠م أرقى من كل الدساتير المؤقتة والدائمة التي أخرجتها الديكتاتوريات العسكرية، والأنظمة العربية حتى الآن»[٢].

وكان للسباعي تأثيره وفاعليته أثناء مناقشة قانون العمل. والنص على حقوقهم، كتحديد ساعات العمل، وتأمين العمل لمن لا يجدونه، وحماية حقوق العمال، وضمان مصالحهم، وزيادة أجورهم، وتحسين ظروف عملهم،

---

(١) مذكرات أكرم الحوراني: ٢/ ١٢٣١.
(٢) المرجع السابق: ٢/ ١٢٣٢.

وتحسين أوضاعهم المادية، برفع أجورهم، لتتناسب مع ما يقدمون من جهد، والارتقاء بهم اجتماعياً وصحياً وعقلياً، وطالب بإعطائهم عطلات كافية، ووقف ضد التسريح التعسفي، وطالب بسن قوانين تكفل لهم كل ذلك، وتحميهم من عسف أرباب العمل، وقد طالب هؤلاء بأن يدفعوا للعمال رواتب تتناسب وطبيعة العمل الذي يقومون به، وإذا لم يكف الراتب في سد حاجة العامل، فعلى الدولة تغطية احتياجاته.

هذا وقد بادر السباعي إلى فتح المدارس الليلية المجانية للعمال، وقد تخرج في تلك المدارس عدد من النابهين، كان منهم قضاة، ومحامون، وأساتذة جامعات، ومدرسون.

وخصص السباعي ركناً للعمال في جريدة (المنار) وجريدة (الشهاب) من أجل حل مشكلاتهم، وخصص محامياً لذلك، وكان يُعْنى في هذا الركن بالدفاع عنهم، ونشر أخبارهم، ومساعدتهم في تحقيق طموحاتهم.

وكتب المقالات، وحاضر في المركز العام للإخوان وفي سواه، من أجل توعية العمال، وتسييسهم، حتى لا يعيشوا على هامش الحياة.

مع الفلاحين:

كان السباعي يأسى لحال الفلاحين البسطاء الذين يلقون كل ألوان الظلم والعنت على أيدي ملاك الأراضي، الذين كانوا يسرقون جهود الفلاحين، ويستخدمونهم ونساءهم وأولادهم فيما يليق ولا يليق.

أحزنه حال الفلاحين، فقرر أن يصدع بما أمره الله به، من رفع الظلم عن عباد الله الذي كرّم الإنسان، فكان حرباً على التخلف والحياة البائسة في الريف، فبادر إلى تشكيل لجان طبيّة، من أطباء وممرضين وعلماء، يحملون معهم الدواء والطعام، ويخرجون إلى القرى والأرياف أسبوعياً، ليعالجوا مرضى الفلاحين، ويقدّموا لهم الدواء والداء والتوعية والعلم، وأنشأ بعض العيادات والمستوصفات الخيرية فيها، ودعا الحكومات المتعاقبة إلى إنصاف الفلاحين

وأسرهم، وتأمين الخدمات الصحيّة لهم، وفتح المدارس، وتوفير الكهرباء، والماء النقي لهم، وشقّ الطرق إلى قراهم.

وقد ذكرنا أنه كان أحد الأعضاء المؤثرين في وضع الدستور السوري عام ١٩٥٠ وخاض معارك ضارية ضد الإقطاع والإقطاعيين الذين كانوا يمثّلون نسبة كبيرة في الجمعية التأسيسية، ثم في البرلمان، ومع ذلك، استطاع هو وزملاؤه في الجبهة الاشتراكية الإسلامية تحقيق بعض المكاسب للفلاحين. وقد نصّت المادة الثلاثون على ما يلي.

«لتحقيق استثمار أرض الوطن استثماراً صالحاً، ولإقامة علاقات اجتماعية عادلة بين المواطنين، يسنّ تشريع خاص يقوم على المبادئ الآتية:

١ ـ وجوب استثمار الأرض وعدم إهمالها، وفي حالة مخالفة ذلك خلال مدة يحدّدها القانون، يسقط حقّ التصرّف بها.

٢ ـ يُعيَّن بقانون، حدّ أعلى لحيازة الأراضي، سواء بطرق التملك أو التصرف والاستثمار، على أن لا يكون له مفعول رجعي.

٣ ـ فرض تحسين الإنتاج.

٤ ـ تشجيع الملكيات الصغيرة والمتوسطة.

٥ ـ توزع الدولة من أراضيها، ببدلات معتدلة ومقسطة على الفلاحين غير المالكين، ما يكفيهم من الأرض، لتأمين معيشتهم.

٦ ـ حماية الفلاح، ورفع مستواه[1].

وفي كتابه القيّم (اشتراكية الإسلام) دعا إلى تحديد الملكيات الزراعية الكبيرة، وإلى توزيع الأراضي على الفلاحين الذين يعملون في تلك الأراضي ولا يملكون منها شيئاً، لأنّ الله ـ سبحانه ـ وضع السنن لاكتساب الملكية

---

(١) مذكرات أكرم الحوراني: ٢/ ١٢٣٤.

الخاصة عبر العمل، كما كفل العاجزين عنه، ورفض أن تملك قلّة قليلة ملكيات كبيرة شاسعة واسعة، وتحرم الكثرة الكاثرة من الفلاحين البائسين من امتلاك شيء منها، وهذا سوف يؤدي إلى ألوان من الظلم والفساد. ثم إن الملكية وظيفة اجتماعية لصالح المجتمع، وتلك القلّة الجائرة أعجز من أن تنهض بتلك الوظيفة.

واستشهد السباعي على صحة ما يدعو إليه. بما فعله أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وما فعله بعض الخلفاء في الأندلس، عندما وزّعت الأراضي المستصلحة على الفلاحين الذين لا يملكون أرضاً يزرعونها، فقد كانت الأراضي التي يستولي عليها المسلمون، إمّا أن تمتلكها الدولة، ثم تؤجّرها للفلاحين، وإمّا أن توزعها عليهم.

وفي برلمان١٩٦٢م كان يوجّه إخوانه النواب أن يطلبوا من الحكومة توزيع أملاك الدولة من الأراضي البور على الفلاحين، وهذا يعني أن السباعي ـ رحمه الله تعالى ـ كانت عينه على الفلاحين، برغم المرض الذي ظنّ بعض الناس أنه سوف يشغله عن قضايا الشعب عامة، والفقراء منه خاصة.

* * *

## في البرلمان

خاض السباعي الانتخابات البرلمانية عام١٩٤٩ (الجمعية التأسيسية) عن مدينة دمشق، ونال فيها أعلى الأصوات، لما كان يتمتع به من سمعة طيبة لدى الدمشقيين الذين رأوا فيه شخصية فذة، وقائداً سياسياً، ومجاهداً في سبيل فلسطين، ومناضلاً ضدّ الاستعمار الفرنسي، وعالماً عاملاً، وخطيباً مصقعاً، ومصلحاً اجتماعياً يحدب على الفقراء والمساكين، ويسعى إلى القضاء على الفساد والظلم، لينهض بسورية الفتية، معافاة من الأمراض.

وفي الجمعية التأسيسية كان أحد أعضاء لجنة الدستور، التي كُلفت بوضع الدستور السوري عام ١٩٥٠م وخاض عدة معارك أثناء وضع الدستور، وعلى عدة جبهات، كمعركة دين الدولة، فقد كان العلمانيون يريدون فصل الدين عن الدولة وعن الحياة، وكان السباعي يعمل على أسلمة الدستور، بأن تكون الشريعة الإسلامية المصدر الأساس للتشريع، بمعنى أن دين الدولة هو الإسلام. وبفضل جهوده المبرورة أقرت لجنة الدستور المواد التالية:

١ ـ دين رئيس الجمهورية الإسلام.

٢ ـ الفقه الإسلامي المصدر الرئيسي للتشريع.

٣ ـ حرية الاعتقاد مصونة، والدولة تحترم جميع الأديان السماوية وتكفل حرية القيام بجميع شعائرها، على أن لا يخل ذلك بالنظام العام.

٤ ـ الأحوال الشخصية للطوائف الدينية مصونة ومرعية.

كانت المعركة داخل لجنة الدستور، ثم انتقلت إلى البرلمان، بعد أن تحوّلت الجمعية التأسيسية إلى برلمان، ثم انتقلت إلى الشارع السياسي، وإلى

الصحافة، وكان السباعي صاحب أقوى صوت في البرلمان، وفي المظاهرات والمنتديات والمحاضرات، وصاحب أقوى قلم في الصحافة والمنشورات، وكان للبيان التاريخي الذي أذاعه في ٨/ ٢/ ١٩٥٠م دوي في نفوس السوريين، كسب به المعركة على العلمانيين، فقد أدلى فيه بحججه القوية، من التاريخ الحضاري في القديم والحديث، ودحض مفتريات المنادين بفصل الدين عن الدولة والتعليم والحياة، ثم أعلن احتكامه إلى الشعب، وأبدى استعداده لقبول ما يحكم به الشعب الذي هو مصدر السلطات، كما يقولون.

وقد جاء في مقدمة الدستور:

لمّا كانت غالبية الشعب السوري تدين بالإسلام، فإن الدولة تعلن استمساكها بالإسلام ومثله العليا.

ونص الدستور على أن الإسلام هو دين الدولة الرسمي، وأن الفقه الإسلامي هو المصدر الأساس للتشريع، ويلزم الدستور المجلس النيابي «بإعادة النظر في كل القوانين المعمول بها في الدولة، وإلغاء ما كان منها مخالفاً للإسلام»[1].

وكانت معركته الكبيرة الثانية حول الملكيات الزراعية الكبيرة، وتوزيع الأراضي على الفلاحين الذين لا يملكون أرضاً «إذ كنا ننادي بوجوب النص في الدستور على مبدأ تحديد الملكية الزراعية، على أن ينفذ هذا التحديد فور صدور الدستور لكل الملكيات الزراعية الموجودة، وكانوا يعارضون في ذلك معارضة شديدة. وأخيراً تغلّبنا عليهم في إقرار الدستور الذي صدر عام ١٩٥٠م لمبدأ التحديد، وتغلّبوا علينا في جعل التحديد يسري على الملكيات التي ستنشأ في المستقبل، دون أن يكون لذلك مفعول رجعي، بحيث لا يمسّ الملكيات القائمة»[2].

---

(١) أنور الجندي، أعلام القرن الرابع عشر الهجري: ١/ ٤٣٦.
(٢) اشتراكية الإسلام، ط٢، ص١٦٧ ـ ١٦٨.

كان فيما قاله السباعي في الجلسة المنعقدة في شهر آب ١٩٥٠م عند مناقشة المادة الثلاثين من الدستور:

«إن مرجع البلاء في البلاد العربية يعود إلى فقدان العدالة الاجتماعية، وإن الفقر كاد يكون كفراً، وإن الإسلام أقر أخذ المال من الغني لسد حاجة الفقير، ولا بأس من توزيع الأراضي على الفلاحين، والحجر على مبذري الثروات»[١].

«وقد أقرت فيه فقرة هامة جداً تتعلق بوضع قانون لحماية الفلاح، كما أقرت فقرة توزيع أملاك الدولة»[٢].

وما نقله الحوراني في مذكراته أقل بكثير مما قاله السباعي في تلك المناقشات الحامية، وهذا ما نرى صداه في المقال المنشور في جريدة النصر الدمشقية في ٢٨/ ٨/ ١٩٥٠م بقلم ديك الجن صوّر فيه الأشخاص والعقليات والأوضاع أثناء مناقشات الدستور، وكان مما قال:

«أما الدكتور مصطفى السباعي، فلعمرو الحق، إنني أزداد إعجاباً به يوماً بعد يوم وتتكشف لي شخصيته الفذة، وإيمانه العميق بمبادئه، فهو يبرهن دائماً أنه ذلك الاشتراكي الإسلامي الذي يطبق اشتراكية الإسلام كمبدأ متين، يرتبط بعقيدته، وليس كمبدأ حزبي يدافع عنه ارتباطاً بحزبه أو بجماعته ولا مظاهرة أمام أنصاره، وكان من الرائع أنه وجه أقسى طعنة للإقطاعية، ووصفها بأشنع الموبقات، أما مغامز (البرازي) حين حاول طعنه بإثارة قضية دين الدولة فقد اكتسحها السباعي اكتساحاً، وصب على رأس (البرازي) فيضاً من الكلام اللاذع وتركه لا يحير جواباً»[٣].

وكانت معركته الثالثة بشأن قانون العمل والعمال وإنصافهم، ولكنها

---

(١) مذكرات أكرم الحوراني: ٢/ ١٢٣٥.
(٢) المرجع السابق: ٢/ ١٢٣٦.
(٣) المرجع السابق: ٢/ ١٢٣٧ـ١٢٣٨.

كانت أقل حدة من سابقتيها، إلى جانب معاركه السياسية الأخرى، مما له صلة بالدكتاتوريات العسكرية، والمشروعات الاستعمارية، والتحالفات المشبوهة، وقضية فلسطين على وجه الخصوص، وهو يحتاج إلى حيّز أكبر مما هو مخصَّص له في هذا الكتاب.

قال أكرم الحوراني في مذكراته: «في مساء يوم ٢٩/ ٤/ ١٩٥٠م عقدت الجمعية التأسيسية جلسة تحدث فيها السباعي عن الإرادات الأجنبية التي تسيّر الجامعة العربية، وهاجم الزعماء المسؤولين عن كارثة فلسطين، واستعرض أسبابها، وأشار إلى خيانة الإنكليز للعرب في حيفا ويافا، وحمل على المتخاذلين أمام بريطانية، وطالب سورية أن تضع يدها بيد الاتحاد السوفياتي، بعد أن تأكد للعرب أن الديمقراطيات الغربية خانت القضية العربية، كما طالب بإلغاء الامتيازات البترولية»[1].

* * *

---

(١) مذكرات أكرم الحوراني: ٢/ ١١٨٦.

## في الصحافة

لا نستطيع أن نبعد السباعي عن مملكة الصحافة، لأنه كاتب رصين، ذو أسلوب جزل، وفكر عميق، وكأن الصحفي ينبغي أن يكون مثل كتبة هذا الزمان، ذوي الأساليب الركيكة، والفكر المهزوز، والشخصية المسطحة.

فقد باشر السباعي الفتى الكتابة في مجلة (الفتح) القاهرية، وكان صاحبها الكاتب الكبير المجاهد محب الدين الخطيب قد أفسح له صفحاتها، ليكتب فيها «المقالات الحارة ذات الوهج المشتعل منذ عام ١٩٣٣، ١٩٣٤م عن فلسطين، وعن مآسي الاستعمار في سورية ولبنان والعراق»[(١)].

كما نقد كتابي الدكتور أحمد أمين (فجر الإسلام) و(ضحى الإسلام) في مجلة (الرسالة) التي كان يصدرها الزيات، عام ١٩٤٠م وكانت نقداته علمية رصينة تتناسب مع مجلة الرسالة ذات المقام الرفيع. . وكان السباعي طالباً في الأزهر حينئذ، وكان الدكتور أحمد أمين عميد كلية الآداب. وقد دافع فيها عن السنّة، وعن قضايا الإسلام والمسلمين.

وفي ١٩٤٦/٦/٢٢م ظهر العدد الأول من جريدة (المنار) التي أصدرها السباعي في دمشق، لتكون لسان حال جماعة الإخوان المسلمين في سورية، في أربع صفحات، وعرَّفها بأنها (جريدة يومية سياسية تصدر في دمشق) وكان السباعي صاحب امتيازها، ومدير سياستها، وكان هو والأستاذ عمر بهاء الدين الأميري يكتبان افتتاحياتها النارية، ضد الأنظمة العربية الحاكمة، وكانت لسان حال دعوة (الحق والقوة والحرية) تدعو إلى الإصلاح الجذري، وتدافع عن

---

(١) د. محمد رجب البيومي، النهضة الإسلامية: ٣/ ٤٦٨.

مصالح الشعب، وترى في وحدة الأمة العربية والإسلامية طريق الخلاص للعرب والمسلمين.

كانت حياتها «حافلة بالكفاح من أجل الحزب الذي تمثله، وبالدفاع عن القضية الفلسطينية، والدعوة إلى الجهاد الإسلامي، وبمقاومة الحكومات المتعاقبة، كما دخلت في صراعات مع العديد من الصحف ذات الاتجاهات المختلفة، ولا سيما مع صحافة اليسار، وصحافة الحزب الوطني»[1].

كما كانت تقف في مواجهة العسكر الذين يريدون اغتصاب السلطة والحكم، الأمر الذي جعلها تتعرض للتعطيل في أكثر من عهد، فقد عطلها الزعيم حسني الزعيم في ١٧/ ٥/ ١٩٤٩، ثم عادت إلى الصدور بعد الانقلاب عليه، واستأنفت مسيرتها النضالية في شهر تشرين الثاني ١٩٤٩م، ثم عطلها الزعيم أديب الشيشكلي، ثم عادت بعد الانقلاب عليه، وعطلها جمال عبد الناصر، أيام فترة الوحدة، ثم عادت بعد الانقلاب عليه، ثم عطلها انقلاب الثامن من آذار ١٩٦٣م بعد أن عمرت ثلاث عشرة سنة، كانت فيها صحيفة عقيدة ومبدأ، طابعها إسلامي صرف، وكانت تعيش الأحداث، وتشارك العرب في مشاعرهم وأحاسيسهم، فتفرح لأفراحهم، وتحزن لأحزانهم، وتنفذ إلى قلوبهم بأسلوبها المؤثر[2] فقد طبعها السباعي بطابعه الحماسي المتمرد على الفساد، والظلم، والاستعمار، وكانت كلما اشتدت عنفاً، اشتدت الرقابة عليها، وكثر الحذف منها، حتى صارت فيها مساحات بيضاء في كثير من أعدادها، وقد كتب عليها كلمة (مراقبة). جاء في إحدى افتتاحياته:

«وعود كالسراب في مكافحة الغلاء والفقر. فإلى متى تستمرون بإغناء الأغنياء، وإفقار الفقراء»؟.

وكتب في افتتاحية يوم ٦/ ١٢/ ١٩٤٨:

---

(١) جوزيف إلياس، تطور الصحافة السورية: ٢/ ٣١٦.

(٢) المرجع السابق: ٢/ ١٨٧.

«هذه العروش الظالمة، لابد أن تثلَّها يد الأقدار العادلة».

وفي ٦/ ٢/ ١٩٥٥م أصدر جريدة (الشهاب) الأسبوعية، وكان المحرر الأول فيها، وهبها الكثير من وقته وجهده وراحته، ولكنها ما لبثت أن توقفت في ١٨/ ٩/ ١٩٥٧[1] بسبب المشاغل والمتاعب والمرض والأسفار التي تعرَّض لها السباعي.

كان السباعي يكتب كثيراً من افتتاحياتها، ويحرر بعض أبوابها وأعمدتها، كما ينشر ملخصات لمحاضراته وخطبه، ويكتب أبحاثاً علمية.

وأصدر السباعي مجلة (المسلمون) التي هاجرت مع صاحبها ورئيس تحريرها الدكتور سعيد رمضان ـ رحمه الله ـ من مصر.

صدرت باسم مصطفى السباعي، رئيساً مسؤولاً عن التحرير، وتحمل أمام الحكومة والقراء مسؤولية ما ينشر فيها[2]، وكان له في كل عدد مقال علمي رئيس.

ثم أصدر السباعي مجلة (حضارة الإسلام) وكتب تحت اسمها هذا: (مجلة فكرية، شهرية، جامعة، تصدر في دمشق) سنتها عشرة أعداد[3]. صدر العدد الأول منها في تموز ١٩٦٠م وكان السباعي يكتب كل افتتاحياتها، إلى جانب مقال رئيس، كما كان يحرر بعض أبوابها الثابتة، وكان يهتم برسائل القراء، ويجيب عليها، ويشجع تلاميذه على الكتابة فيها، ويستكتب كبار الكتاب من أنحاء العالم الإسلامي، حتى غدت ـ إلى جانب أختها (المسلمون) التي هاجرت مع صاحبها إلى جنيف ـ أرقى مجلتين فكريتين إسلاميتين.

* * *

---

(١) جوزيف إلياس، تطور الصحافة السورية: ٢/ ٥٨٢.

(٢) مجلة المسلمون ـ السنة التاسعة ـ العدد ٣.

(٣) جوزيف إلياس: ٢/ ٥٨٧.

# الفصل الثاني
# تعريف بمؤلفاته

١ ـ السنّة ومكانتها في التشريع الإسلامي
٢ ـ المرأة بين الفقه والقانون
٣ ـ اشتراكية الإسلام
٤ ـ من روائع حضارتنا
٥ ـ أخلاقنا الاجتماعية
٦ ـ دعوة الإسلام واقعية لا خيال
٧ ـ الإخوان المسلمون في حرب فلسطين
٨ ـ أحكام الصيام وفلسفته في ضوء القرآن والسنة
٩ ـ هذا هو الإسلام
١٠ ـ عظماؤنا في التاريخ
١١ ـ الاستشراق والمستشرقون : ما لهم وما عليهم
١٢ ـ السيرة النبوية : دروس وعبر
١٣ ـ شرح قانون الأحوال الشخصية
١٤ ـ هكذا علمتني الحياة
١٥ ـ القلائد من فرائد الفوائد
١٦ ـ دروس في دعوة الإخوان المسلمين
١٧ ـ الصراع بين العقل والقلب



# تعريف بمؤلفاته

## ١ ـ السنّة ومكانتها في التشريع الإسلامي

وهي الرسالة التي نال بها المؤلف شهادة (الدكتوراه) في الفقه، والأصول، وتاريخ التشريع الإسلامي، برتبة (ممتاز) من كلية الشريعة في الجامع الأزهر، مضافاً إليها بعض الأبحاث والردود التي كتبها فيما بعد، يقع الكتاب في نحو خمس مئة صفحة من القطع الكبير، ويتألف من مقدمة، وتمهيد وثلاثة أبواب توزعت على أربعة عشر فصلاً، وخاتمة، وملحقين.

وقد تتبع المؤلف الأدوار التاريخية التي اجتازتها السنة النبوية أو الحديث الشريف، وجهود علماء المسلمين في تمحيصها، وتدوينها، والمحافظة عليها، مناقشاً الشبهات والشكوك التي أوردها عليها المتحاملون في القديم والحديث، بمنهجية علمية موضوعية.

**التمهيد:**

قدم فيه نظرته الواضحة تجاه السنة النبوية، وأهميتها في التشريع، والسبب أو الأسباب التي تدعو أعداء الإسلام إلى إعلان الحرب عليها، لما للسنة من أثر كبير في اتساع دائرة التشريع الإسلامي وعظمته وخلوده.. الأمر الذي حمل أعداء الإسلام في الماضي والحاضر على مهاجمة السنة، والتشكيك في حجّيتها، وصدق جامعيها، ورواتها، من أعلام الصحابة والتابعين فمن بعدهم، ولا يخفي المؤلف تفاؤله بانتصار الحق على الباطل في هذه المعركة، وفي هذه المعارك، وفي كل معركة، لأن من سنّة الله في الحياة أن ينتصر الحق والعلم والسماحة والنور دائماً وأبداً.

ويأسى لانخداع بعض المسلمين بأولئك الأعداء، ويرده إلى سبب من أسباب أربعة:

١ ـ إما جهلهم بحقائق التراث الإسلامي.

٢ ـ وإما انخداعهم بالأسلوب (العلمي) المزعوم لأولئك الخصوم.

٣ ـ وإما رغبتهم في الشهرة والتظاهر بالتحرر الفكري من التقليد.

٤ ـ وإما وقوعهم تحت تأثير أهواء وانحرافات فكرية.

**الباب الأول:**

ويشتمل على أربعة فصول، كان الفصل الأول في معنى السنة وتعريفها: في اللغة، وفي اصطلاح المحدثين، وفي اصطلاح الأصوليين.

ويريد المؤلف بالسنّة ـ في كتابه هذا ـ تلك التي يبحث عن حجيتها ومكانتها في التشريع، وإن كان قد تعرض لإثبات السنة تاريخياً بالمعنى الأعم الذي عناه المحدثون[1].

وبيَّن المؤلف وجوب طاعة الرسول في حياته، وبعد وفاته، وكيف كان الصحابة يتلقون حديثه وسُنَّته.

ثم أجاب المؤلف عن هذين السؤالين:

لماذا لم تُدوَّن السنَّة في عهد الرسول؟.

وهل كُتب عنها شيء في حياته؟.

ثم تحدث عن رحلة الصحابة إلى الأمصار طلباً للحديث.

وكان الفصل الثاني (في الوضع في الحديث) تحدّث فيه عن بداية الوضع، وفي أي جيل نشأ، وعن البواعث التي أدت إلى الوضع، والبيئات التي نشأ فيها.

---

(١) السنّة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ص٤٩.

وكان الفصل الثالث (في جهود العلماء لمقاومة حركة الوضع)، وهي جهود جبّارة لا مزيد عليها، وكانت أساليبهم في هذا أقوم الأساليب العلمية في النقد والتمحيص، فكانوا بذلك أول من وضعوا قواعد النقد العلمي الدقيق للأخبار والمرويات بين أمم الأرض كلها، وقد تناول نقدهم: إسناد الحديث، والتوثّق من الأحاديث، بالرجوع إلى الصحابة والتابعين وأئمة هذا الفن، وقد تتبّعوا الرواة، ودرسوا حياتهم، وتاريخهم، وسيرتهم، وما خفي من أمرهم وما ظهر، ولم تأخذهم في الله لومة لائم، ولا منعهم من تجريح الرواة والتشهير بهم ورع ولا حرج[1].

وقرر أن «الرواة الذين يُتوقَّفُ في قبول روايتهم أصناف، من أهمهم:

١ ـ من اختُلف في تجريحه وتعديله.

٢ ـ من كثر خطؤه، وخالف الأئمة الثقات في مروياتهم.

٣ ـ من كثر نسيانه.

٤ ـ من اختلط آخر عمره.

٥ ـ من ساء حفظه.

٦ ـ من كان يأخذ عن الثقات والضعفاء ولا يتحرى»[2].

ثم تحدّث عن القواعد العامة لتقسيم الحديث وتمييزه، فكان لنا: الحديث الصحيح، والحديث الحسن، والحديث الضعيف، وبيَّن حدَّ كلٍّ من هذه الأنواع.

ثم تحدّث عن علامات الوضع في السند، وعلامات الوضع في المتن.

وكان الفصل الرابع (في ثمار هذه الجهود) في تدوين السنة، ووضع علم

---

(١) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ص٩٢.

(٢) المرجع السابق، ص٩٤

مصطلح الحديث، وعلم الجرح والتعديل، وعلوم الحديث التي أوصلها الحاكم إلى اثنين وخمسين علماً، وأوصلها النووي إلى خمسة وستين علماً، ثم تحدث المؤلف عن أهم تلك العلوم، وكانت سبعة وعشرين علماً.

ثم تحدّث عمَّن كتب في الموضوعات والوضاعين، وذكر أسماء أشهرهم، وبعض الكتب التي تناولت الأحاديث الموضوعة.

الباب الثاني:

وكان في الشُّبَه الواردة على السنّة في مختلف العصور، ويتألف من سبعة فصول.

كان الفصل الأول بعنوان: (السنة مع الشيعة والخوارج)، فقد أدى الخلاف بين الصحابة إلى أن يكون لكل من الشيعة والخوارج رأي في الصحابة غير رأي جمهور المسلمين، فأما الخوارج، فإنهم يعدّلون الصحابة جميعاً قبل الفتنة، ثم يكفّرون عثمان وعلياً، وأصحاب الجمل، والحكمين، ومن رضي بالتحكيم وبذلك ردوا أحاديث جمهور الصحابة بعد الفتنة.

وأما الشيعة فإنهم يجرِّحون جمهور الصحابة إلا نفراً ممن عرفوا بولائهم لعلي رضي الله عنه، وقد ذكر بعضهم أنهم خمسة عشر صحابياً فقط.

وكان الفصل الثاني: (السنة مع المعتزلة والمتكلمين) ذكر فيه المواقف المضطربة للعلماء في نُقولها عن مواقف المعتزلة، وأهل الكلام من حجّية السنة، وانتهى إلى أن رؤساء المعتزلة فتحوا «ثغرات في مكانة الصحابة، استطاع أن يلج منها المتعصبون من المستشرقين، إلى حمى أولئك الذادة الميامين من صحابة رسول الله.

وكان الفصل الثالث بعنوان: (السنّة مع منكري حجّيتها قديماً)، ومن هؤلاء المنكرين: أهل الكلام الذين شنُّوا غارة شعواء على السنّة، لشكّهم في ثبوتها، بحيث لا تقف أمام القرآن المقطوع بصحته، ونسبته إلى رسول الله ﷺ، ثم إلى الله عزّ وجلّ.

وتحدث في الفصل الرابع عن (السنة مع منكري حجيتها حديثاً)، وأورد شُبَههم، وردّ عليها شبهة شبهة، وخلص إلى القول بأن «إنكار حجية السنة، والادعاء بأن الإسلام هو القرآن وحده، لايقول به مسلم يعرف دين الله، وأحكام شريعته تمام المعرفة، وهو يصادم الواقع، فإن أحكام الشريعة إنما ثبت أكثرها بالسنّة، وما في القرآن من أحكام، إنما هي مجملة وقواعد كلية في الغالب، وإلا فأين نجد في القرآن أن الصلوات خمس؟ وأين نجد ركعات الصلاة، ومقادير الزكاة، وتفاصيل شعائر الحج، وسائر أحكام العبادات والمعاملات؟»[1].

وتحدّث في الفصل الخامس عن (السنة مع من ينكر حجية خبر الآحاد) فذكر أن علماء الحديث قسموا الأخبار إلى: متواترة، وآحاد، واتفق العلماء على أن المتواتر يفيد العلم والعمل معاً، وهو عندهم حجة لا نزاع فيها، وأما خبر الآحاد، فالجمهور على أنه حجة يجب العمل به، وإن أفاد الظن.

وقدّم المؤلف عرضاً تاريخياً لأغراض المستشرقين، في الفصل السادس الذي كان بعنوان: (السُّنَّة مع المستشرقين) فذكر من دوافع الحملات الصليبية على بلاد الإسلام دافعين:

الأول: دافع الدين والعصبية العمياء التي أثارها رجال الكنيسة.

الثاني: دافع سياسي استعماري لنهب ثروات المسلمين، واحتلال بلادهم.

وشاء الله أن تندحر الحملات الصليبية مهزومة مكسورة، وأن ترتد إلى بلادها خاسئة، بعد حروب استمرت مئتي سنة، ولكن ملوكها وأمراءها كانوا مصممين على الاستيلاء على هذه البلاد، ورأوا أن «يتجهوا إلى دراسة شؤونها، وعقائدها، تمهيداً لغزوها ثقافياً وفكرياً. ومن هنا كانت النواة الأولى لجمعيات المستشرقين التي ما زالت تواصل عملها حتى اليوم».

---

(١) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ص١٦٥.

وبعد أن يذكر سمات أبحاث المستشرقين المجحفة، وتأثر المثقفين من أبناء أمتنا ثقافة غربية بهم، ينتقل إلى بيان موقف المستشرقين من السنة.

وكان الفصل السابع بعنوان (السنة مع بعض الكاتبين حديثاً)، ووقف طويلاً مع أحمد أمين في كتابه (فجر الإسلام) الذي أفرد فيه مؤلفه فصلاً خاصاً بالحديث استغرق نحواً من عشرين صفحة حاول فيه أن يؤرخ للسنّة وتدوينها، وبعد أن لخّص آراءه ومقولاته، عاد إليها، وفنّدها جميعها، وبيّن التأثر الكبير الواضح في تلك الآراء والمقولات، بآراء المستشرقين، وكذلك رد على رسالة الملحد إسماعيل أدهم عن تاريخ السنّة، ودافع عن الإمام البخاري، والمجاهد عبد الله بن المبارك، وعن الإمام أبي حنيفة، وعن عدالة الصحابة الكرام، ونفى أن يكون الصحابة يكذّب بعضهم بعضاً، وما كان بينهم لا يعدو النقاش العلمي في فهم الحديث، أو يكون تعليماً للجيل الناشئ، لينشأ على ما كان عليه الصحابة من التحري والتثبت.

ثم ناقش اختلاف العلماء في التعديل والتجريح، وبين قواعدهم في نقد الحديث، من حيث المتن ومن حيث السند، وكان يذكر مزاعم أحمد أمين التي نقلها عن أساتذته المستشرقين، ثم يفنّدها بنداً بنداً.

ثم تحدّث عن الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله عنه حديثاً مركزاً، رد فيه على المطاعن التي أوردها صاحب (فجر الإسلام) عليه، فذكر اسمه وكنيته، وإسلامه وصحبته، وأوصافه وشمائله، وزهده وعبادته وورعه، وحفظه وقوة ذاكرته، وثناء الصحابة والتابعين وأهل العلم عليه، ومن روى عنهم، ومن رووا عنه، وعن مرضه ووفاته، ثم أورد شبهات مؤلف (فجر الإسلام) عليه، تمشياً من (جولدتسيهر) وأمثاله من المستشرقين، ولخص دسائسه الستة عليه، ثم بيّن ما فيها من أخطاء وتحريفات ومغالطات، وبهذا مزّق ستر هذه المؤامرة (العلمية) على هذا الصحابي الجليل.

ثم جاء دور (أبي رية) ومطاعنه على أبي هريرة في كتابه (أضواء على السنّة المحمدية) ولخص تلك المطاعن والتهم والافتراءات، وناقشها بإيجاز،

كالاختلاف في اسمه، وفي نشأته، وأصله، وفي أميته وفقره، وفي إسلامه وصحبته، وفي قصة جوعه وملازمته للرسول، وفي مزاحه وهذره، وفي التهكم به، وفي كثرة أحاديثه، وفي تشيُّعه لبني أمية.

وقد ناقش السباعي أبا رية نقاشاً مفحماً، وختم نقاشه بكلمة مجملة في أبي هريرة، أنصفه فيها، ثم قدم كلمة مجملة في (أبي رية) وكتابه، وبيّن أن أبا رية غير موثوق فيما ينقل، وأنه اعتمد في سب أبي هريرة وتكذيبه، وفي التشكيك بالسنّة ورواتها، على ما كتبه غلاة المستشرقين، ولم يتحل بالأدب الكريم فيما كتب، فكانت له كلمات نابية مكانها مجالس السوقة والرعاع، لا الكتب والمؤلفات.

وبهذا يظهر أن كتاب أبي رية ليست له أية قيمة علمية لأمرين بارزين:

١ ـ خلو الكتاب من المنهج العلمي.

٢ ـ خلو مؤلفه من الأمانة العلمية.

الباب الثالث:

وكان الباب الثالث (في مرتبة السنة في التشريع الإسلامي) وفيه ثلاثة فصول:

كان الفصل الأول (في مرتبة السنة مع الكتاب) فقرر أنه «اتفق المسلمون قديماً وحديثاً ـ إلا من شذ من بعض الطوائف المنحرفة ـ على أن سنة رسول الله ﷺ، من قولٍ، أو عملٍ، أو تقريرٍ، هي من مصادر التشريع الإسلامي الذي لا غنى لكل متشرع عن الرجوع إليها في معرفة الحلال والحرام»[1].

ثم بيّن أن نصوص السنة على ثلاثة أقسام:

أولاً: ما كان مؤيداً لأحكام القرآن، موافقاً له من حيث الإجمال والتفصيل.

---

(١) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ص٣٧٦.

ثانياً: ما كان مبيناً لأحكام القرآن، من تقييد مطلق، أو تفصيل مجمل، أو تخصيص عام.

ثالثاً: ما دل على حكم سكت عنه القرآن، فلم يوجبه، ولم ينفه.

ثم بيَّن حجج القائلين باستقلال السنة بالتشريع، وحجج المنكرين للاستقلال، ورأيه أن الخلاف بين الفريقين لفظي.

وكان الفصل الثاني بعنوان (كيف اشتمل القرآن على السنة)؟ وفيه بين اختلاف العلماء على خمس طرق، ورأيه أن تجعل كلها طرقاً يتمم بعضها بعضاً، وأن مجموعها كفيل بإرجاع جميع أحكام السنة إلى نصوص القرآن.

والفصل الثالث (في نسخ السنة بالقرآن، والقرآن بالسنة) تحدث فيه عن النسخ في القرآن، ثم نسخ السنة بالكتاب، ثم نسخ الكتاب بالسنة، ورأى أن النسخ الأخير غير موجود على التحقيق.

ثم جاءت الخاتمة عن موقف الأئمة الأربعة من السنة، وبيان مكانتهم فيها، مع ذكر تراجم موجزة لأصحاب الكتب الستة، وفذلكة صغيرة عن كل كتاب من كتبهم.

ثم جاء بملحقين هما مقالان كان كتبهما، الأول بعنوان: (متى نسد هذه الثغرة)؟ تحدث فيه عن مؤامرة التشكيك في السنة الصحيحة التي أقامت صرح الفقه الإسلامي العظيم. ودعا إلى أن «تقوم فينا مجامع ومؤسسات لتتبع آثار المؤامرات وأهدافها، ووسائل تنفيذها».

والملحق الثاني بعنوان: (لا يا عدو الله.. سنطاردك بالحق حتى يرغم الله أنفك). رد فيه الصاع صاعين على أبي رية، الجاهل، المغرور، الكذاب، الجريء على تحريف النصوص، مع قلة أدب، وبذاءة لسان، سعياً إلى الشهرة.

## ٢ ـ المرأة بين الفقه والقانون

يقع هـذا الكتاب العلمي الفقهي القانـوني في ٣٣٦ صفحة من القطع الكبير، وهو، في الأصل، محاضرة ألقاها على مدرج جامعة دمشق في الموسم الثقافي لعام ١٩٦١ ـ ١٩٦٢م واستغرق إلقاؤها أكثر من ساعتين، تعرض لبعض قضايا المرأة في إيجاز، ثم رأى أن يتوسع فيها، لتكون كتاباً كاملاً يليق بأهمية الموضوع، فبيّن ما أجمله، وشرح ما أوجزه، واستدل لكل موضوع بالأدلة الشرعية، وبالوقائع عن أحوال المرأة الغربية، وبأقوال المنصفين من الغربيين في الدفاع عن تهجمات المتعصبين من المستشرقين والرهبان ودعاة الاستعمار.

وقد ألحق بكتابه عدة ملاحق مهمة، فيها تأييد لما جاء في المحاضرة، وبها يستوثق القارئ لما ورد فيها من آراء.

وكان قصد السباعي من محاضرته وكتابه هذا «هو ما ينبغي أن يكون عليه وضع المرأة في مجتمع مسلم متماسك، قوي الأخلاق، متين الدعائم». «ونحن لا يزيد موقفنا عن الدفاع عن كرامة المرأة عندنا، وحقوقها المشروعة، والمحاولة لإبعادها عن مجال الاستغلال لأنوثتها بما يرهقها، ويؤدي إلى شقائها، رجاء أن لا تقع فيما وقعت فيه أختها في الحضارة الغربية، مما ضج منه عقلاؤها ومفكروها الأحرار»[١].

جاء في مقدمة المحاضرة:

«إن قضية المرأة هي قضية كل مجتمع في القديم والحديث، فالمرأة تشكل نصف المجتمع من حيث العدد، وأجمل ما في المجتمع من حيث العواطف، وأعقد ما في المجتمع من حيث المشكلات، ومن ثمة، كان من واجب المفكرين أن يفكروا في قضيتها دائماً على أنها قضية المجتمع أكثر مما يفكر أكثر الرجال فيها

---

(١) د. مصطفى السباعي ـ المرأة بين الفقه والقانون ـ ط٦، ص٨.

على أنها قضية جنس متمم أو مبهج»[1].

وقد تناول السباعي هذه القضية من النواحي ذات الصلة باختصاصه، ودراسته، وتجاربه، وحسب.

قدّم لمحاضرته مقدمة تاريخية عن تطور حقوق المرأة عبر التاريخ، عند اليونان بقوله: «وكانت محتقرة، حتى عدُّوها رجساً من عمل الشيطان، وكانت كسقط المتاع، تباع وتشترى في الأسواق» وفي أوج حضارة اليونان، تبدلت حال المرأة، واختلطت بالرجال في الأندية والمجتمعات، فشاعت الفاحشة، حتى أصبح الزنى أمراً غير منكر، وحتى غدت دُور البغايا مراكز للسياسة والأدب»[2] ثم كان انهيار لهم وزوال.

وتحدّث عن حال المرأة عند الرومان، ولم تكن خيراً من حالها عند اليونان، فلم تكن لها أهلية مالية، ولا مكانة في الأسرة، وبقيت قاصرة الأهلية.

وتحدّث عنها في شريعة حمورابي، وكانت تُحسَبُ في عداد الماشية المملوكة، وعند الهنود الذين جاء في شرائعهم: «ليس الصبر المقدَّر، والريح، والموت، والجحيم، والسم، والأفاعي، والنار، أسوأ من المرأة».

وعند اليهود، كانت في مرتبة الخادم، ولأبيها الحق في أن يبيعها قاصرة، وما كانت ترث، ويعتبرها اليهود لعنة لأنها أغوت آدم، وأنها أمرُّ من الموت.

وعند النصارى: المرأة مسؤولة عن الفواحش والمنكرات، وهي باب الشيطان، ويجب أن تستحيي من جمالها، لأنه سلاح إبليس للفتنة والإغراء.

وعند عرب الجاهلية، كانت مهضومة الحقوق، حتى جاء الإسلام «وانطلق صوت السماء على لسان محمد ﷺ، يضع الميزان الحق لكرامة المرأة، ويعطيها حقوقها كاملة غير منقوصة، ويرفع عن كاهلها وزر الإهانات التي لحقت بها عبر

---

(١) المرأة بين الفقه والقانون، ص٩.
(٢) المرجع السابق، ص١٤.

التاريخ. يعلن إنسانيتها الكاملة، وأهليتها الحقوقية التامة، ويصونها عن عبث الشهوات، وفتنة الاستمتاع بها استمتاعاً جنسياً حيوانياً، ويجعلها عنصراً فعالاً في نهوض المجتمعات وتماسكها، وسلامتها»[1].

ثم تحدَّث عن مبادئ الإسلام في المرأة، وهي:

١ ـ المرأة كالرجل في الإنسانية.

٢ ـ ليست وحدها المسؤولة عن إخراج آدم من الجنة، فهو شريكها في ذلك.

٣ ـ إنها أهل للتدين والعبادة ودخول الجنة كالرجل.

٤ ـ حارب التشاؤم بها، والحزن لولادتها.

٥ ـ حرّم وأدها.

٦ ـ أمر بإكرامها، بنتاً، وزوجة، وأماً.

٧ ـ رغّب في تعليمها كالرجل.

٨ ـ أعطاها حق الإرث.

٩ ـ جعل لها حقوقاً كحقوق الرجل.

١٠ ـ نظّم قضية الطلاق، بما يمنع تعسُّف الرجل فيه واستبداده.

١١ ـ حدَّ من تعدد الزوجات.

١٢ ـ جعلها قبل البلوغ تحت وصاية أوليائها، وجعل ولايتهم عليها ولاية رعاية وتأديب، وعناية بشؤونها وتنمية لأموالها، لا ولاية تملُّك واستبداد، وجعلها بعد البلوغ كاملة الأهلية للالتزامات المالية كالرجل.

ثم تحدّث عن بعض الفوارق بين الرجل والمرأة؛ كالشهادة، وفي

---

(١) المرأة بين الفقه والقانون، ص٢٥.

الميراث، والدية، ورئاسة الدولة، وناقشها نقاشاً علمياً بيّن أن تلك الفوارق لا علاقة لها بالمساواة بين الرجل والمرأة في الإنسانية والكرامة والأهلية، بل كانت لضرورات اجتماعية واقتصادية ونفسية.

ثم تحدَّث عن وضع المرأة المسلمة عبر التاريخ، في عصور الازدهار، وفي عصور الانحطاط، ثم جاء حديثه عن الحاجة إلى الإصلاح، فبيّن أن هناك طريقين للإصلاح لدى المعنيين بقضية المرأة:

١ ـ الاستفادة من تراث الإسلام، وتجارب الأمم في إصلاح المرأة وإنهاضها.

٢ ـ اتباع النهج الغربي في رقي المرأة عندنا، وإنهاضها من كبوتها.

وقد انعكس هذا على قوانيننا، فجاءت فيها أحكام مستمدة من الفقه الإسلامي، وأحكام تخالفه، وقد تحدث السباعي عن أهم تلك الأحكام في إيجاز:

في الأحوال الشخصية:

وقد اقتصر في هذا البحث على أهم الإصلاحات التي تضمنها قانون الأحوال الشخصية السوري، والقوانين المصرية، ففي الزواج تحدث عن منع زواج الصغار دون سن البلوغ، وعن تحديد سن الزواج، وعن الزواج المبكر، وعن منع الفرق الكبير في السن بين الزوجين، ومنع تحكم الولي في الزواج، والشروط في عقد الزواج، وتحدث عن تعدد الزوجات، وعن فكرة التعدد لدى اليهودية والنصرانية وكلتاهما كانتا تبيحان التعدد بدون حدود، وليس في التوراة والإنجيل نصوص تحرم التعدد، وضرب أمثلة كثيرة من تاريخهما عن إباحة التعدد، بل إن بعض الطوائف المسيحية أوجبت التعدد، هذا بالإضافة إلى السراري، كما استعرض آراء بعض مفكري المسيحية في العصر الحديث، تلك التي تنادي بضرورة التعدد، بعد الذي حصل في الحرب العالمية الثانية، حتى بلغ الأمر بالحكومة الألمانية أن ترسل إلى مشيخة الأزهر، تطلب منها نظام تعدد الزوجات في

الإسلام، لأنها تفكر في الاستفادة منه، كحل لمشكلة زيادة النساء، ثم زار وفد من علماء الألمان شيخ الأزهر لهذه الغاية.

ثم تحدث عن ضرورات التعدد: الاجتماعية، والشخصية، وعن مساوئ التعدد، وأن نظام التعدد في الإسلام أخلاقي، إنساني، وهو ليس كذلك عند الغربيين، وتحدث عن تشريع التعدد في القرآن العظيم، وأثر الإصلاح الإسلامي في التعدد، ثم انتقل إلى حال المسلمين اليوم، ونظرتهم إلى التعدد، فذكر الجدل الجديد حول التعدد، وذكر رأي الإمام محمد عبده وناقشه، واستبعد أن يقول الإمام بتحريم التعدد، لأنه تغيير لأحكام الله.

ثم تحدث عن محاولات منع التعدد وتقييده في مصر وتونس وباكستان، وناقش القائلين، بالمنع، واستنكر التسرع في سن التشريعات التي تؤدي إلى أضرار بالغة في مستقبل الأمة عددياً، أو عسكرياً، أو وطنياً، أو غير ذلك، فهذا التسرع هو في مصلحة أعدائنا الذين لهم مؤسسات علمية خفية منبثة، لا يشعر بها كثير من المسؤولين، فليتقوا الله، فإن المؤامرات كثيرة، والأعداء أيقاظ، والحيل واسعة، والخداع محكم، والمتنبهين قلة.

وخلص إلى القول:

«وأخيراً فإنني أعلن بكل صراحة، أنني من أعداء منع تعدد الزوجات تشريعاً وقانوناً، أو وضع العقبات في طريقه، وإن كنت من أنصار وحدة الزوجية في حياتي الشخصية. ولا غرابة في ذلك ولا تناقض، فإن الإنسان العاقل يختار الحياة الأفضل، والمتشرع الحكيم يختار لأمته القانون الأشمل. فأنا لا أدعو إلى أن يعدد كل متزوج الآن زوجاته، ولكني أدعو إلى جعل مبدأ التعدد مسموحاً به من غير قيود، ما عدا قيد القدرة على الإنفاق، ليستطيع التعدد من تلجئه ظروفه الخاصة إلى التعدد، ولتستطيع الأمة في حال الحروب والأزمات التي يقل فيها الرجال ويكثر النساء، أن تستفيد من تشريع التعدد، بما يسد به نقص الرجال، وتكفل به حياة النساء، ويحال بينهن وبين التشرد

والتسكع وإغواء المتزوجين، وإغراء غير المتزوجين»[1].

ثم تحدث عن الطلاق في الإسلام، وذكر مبادئه العامة، ولماذا جعله الله بيد الرجل، وعن الإصلاحات التشريعية في الطلاق: الرجعي، والطلاق الثلاث بلفظة واحدة، وأنـه لا يقع إلا طلقة واحدة، وتحدث عن طلاق السكران، والمكره، والمدهوش، وعن اليمين بالطلاق، وأنه ليس طلاقاً، وعن اشتراط المرأة جعل الطلاق بيدها، وصحة هذا الشرط، وعن الطلاق للغيبة المنقطعة للرجل، والطلاق لعدم الإنفاق، والطلاق المعلل، وعن التفريق للشقاق، والطلاق المتعسف، وخلص إلى أننا «نجد من كل ما تقدم، أن الإسلام، في أصل نظامه الذي وضعه للطلاق، راعى فيه ضرورات الحياة، وواقع الناس في كل زمان، كما أنصف فيه المرأة من فوضى الطلاق». ونجد أيضاً أن المرأة لم تعد تحت رحمة الرجل الذي يملك حق الطلاق، بل فتح لها الإسلام منافذ تنفذ منها إلى حياة الراحة من حياة زوجية شقية بائسة، مع زوج قاس ظالم، فأعطاها حق اشتراط أن يكون الطلاق بيدها عند عقد الزواج، ويسّر لها الخلاص من الزوج برضاه ورضاها إذا كفلت له التعويض عن خسائره المالية بسبب الطلاق، وذلك عن طريق الخلع أو المخالعة، كما فتح لها الطريق إلى القضاء ليحكم بالتفريق بينها وبين زوجها في حالات لا تستطيع الحياة فيها مع زوجها»[2].

ثم تحدث عن الحقوق السياسية للمرأة، فجال جولة في تاريخنا السياسي، والحربي، ومشاركة جداتنا فيهما، وخلص إلى «أن المرأة المسلمة لم تشتغل في السياسة، ولم تسهم في الأحداث السياسية التي مرت بالمسلمين في كل أدوار التاريخ» لأن الإسلام يرى أن من الخير لها ولأسرتها وللمجتمع أن تتفرغ لشؤون الأسرة، وتهتم بها» «وبهذا الموقف الحكيم صان الإسلام كرامة المرأة، فلم يسلبها حقوقها وصان سعادة الأسرة فلم يلزم الزوجة بترك البيت

---

(١) المرأة بين الفقه والقانون، ص١٢٠ ـ ١٢١.

(٢) المرجع السابق، ص١٤٧.

لتشتغل بشغل آخر مما يعمل فيه الرجال، من سياسة أو تجارة أو غيرها».

«ومن هنا نفهم سر عدم اشتغال المرأة المسلمة بالسياسة في جميع أدوار التاريخ، مع ما نالته من حقوق كانت تمكّنها من أن تشتغل بالسياسة، ولكنها أدركت واجبها الأول في الحياة. وهي أن تكون أماً وربة بيت»[1].

ثم انتقل إلى الحديث عن اشتغال المرأة المسلمة بالسياسة في عصرنا الحديث، بتأثير من الحضارة الغربية، فتحدث عن حقها في الانتخاب والترشيح إلى المجالس النيابية، وأن مبادئ الإسلام لا تمنع أن تكون ناخبة ولا نائبة، وليس في الإسلام نصوص صريحة تسلب المرأة أهليتها للعمل النيابي كتشريع ومراقبة.

ثم ينتقل إلى الحديث عن الشؤون الاجتماعية للمرأة فيقرر لها حق التعليم، ويرى أن لجهل المرأة المسلمة في العصور الأخيرة أثراً في تأخر المسلمين، فالأمهات الجاهلات ينجبن أبناء جاهلين خاملين. لذلك كان من النهضة المحمودة أن يفتح للفتاة باب التعليم، وأن تكثر فينا الزوجات المتعلمات، والأمهات المتعلمات».

وعن حقها في التوظيف يقول:

«إن الإسلام نص بصراحة على منع تولي المرأة رئاسة الدولة» ويلحق برئاسة الدولة كل ما كان بمعناها في تحمل المسؤوليات الخطيرة. أما سائر الوظائف الأخرى، فليس في الإسلام ما يمنع المرأة من توليها، لكمال أهليتها» على ألا تعطلها الوظيفة عن أمومتها، وعلى أن لا تختلط بالرجال، وتبدي من جسمها مالا يجوز كشفه.

ومع ذلك، يرى السباعي أن توظيف المرأة بدلاً من الرجل، عمل لا تبرره المصلحة، وأن تقتصر وظيفتها في بعض المؤسسات، كالمستشفيات، ومدارس الأطفال، ومدارس البنات، وفي مختلف نواحي النشاط الاجتماعي الذي تنجح فيه نجاحاً كبيراً.

---

(١) المرأة بين الفقه والقانون، ص١٥٢ ـ ١٥٤.

وفي مجال العمل، تقرر أحكام الإسلام أن عقود المرأة، وتصرفاتها التجارية صحيحة منعقدة ولا تتوقف على إجازة أحد من ولي أو زوج، ولكنه يخشى من نزول المرأة إلى العمل، أن تتفكك الأسرة، وتحدّث عن شكوى الغربيين وتذمرهم مما آلت إليه حال المرأة العاملة عندهم، واستشهد بأقوال العديد من مفكريهم.

وتحدث عن الاختلاط، وعدم جوازه شرعاً، إلا في مواطن العبادة، وأماكن العلم، وميادين الجهاد حين يعلن النفير العام. وتحدث عن مساوئه ونتائجه الخطيرة، وأيد ما يذهب إليه بأقوال بعض مفكري الغرب، حتى يقتنع المفتونون بحضارته، وحاور المنادين بوجوب عمل المرأة، وندد بأدباء الجنس، وبين الأخطار المترتبة على أدبهم الخليع والمكشوف.

ونحب أن نذكر الخلاصة التي أنهى بها السباعي محاضرته هذه في قضية المرأة بقوله:

١ - يجب تعليمها، وجعل برامج التعليم للبنات يختلف قليلاً عن برامج التعليم للشبان بما يهيئها لحياتها في المستقبل.

٢ - يجب أن تتمتع بجميع الحقوق التي منحها إياها الإسلام - وقد ذكرتها في أول هذا البحث.

٣ - يجب العناية بإعدادها لأيام النكبات والحروب، فنحن معرضون لحروب دامية إقليمية أو عالمية، فيجب أن تتعلم ما يتعلق بالدفاع المدني، والإسعاف المنزلي وغيره، وأن تتدرب على استعمال السلاح وإتقان الرمي والدفاع، وكل ذلك يجب أن يتم في حدود الأخلاق الإسلامية.

٤ - يجب أن يضيق النطاق على توظيفها في الدولة، بحيث لا توظف إلا في وظائف تتفق مع رسالتها ومع طبيعتها، كالتطبيب للنساء، وتطبيب الأطفال، والتعليم في مدارس الأطفال، وفي المدارس الثانوية للبنات وما أشبهها من أعمال التوجيه الاجتماعي للأسر والعائلات.

٥ ـ يجب أن تهيأ لأداء رسالتها الاجتماعية النبيلة بما يجعل منها امرأة صالحة لتكوين الأسرة والإشراف على شؤون البيت والأولاد.

٦ ـ يجب منع اختلاطها بالرجال الأجانب عنها، إلا ما تقتضيه الضرورة الماسة في حدود الأخلاق الإسلامية، ومن ذلك أداؤها للعبادات في المساجد، وتلقيها العلم في الجامعات.

٧ ـ يجب عدم إفساد سعادتها بالاشتغال بالسياسة، لتصان داخل المجتمع ـ وهو مجموع العائلات فيه ـ من خطر الخلافات الحزبية، والتفرغ لأداء رسالتها الكبرى.

٨ ـ يجب أن تهيأ للقيام بالإصلاح الاجتماعي والأخلاقي في الأوساط النسائية، فعائلاتنا وأمهاتنا ونساؤنا في أشد الحاجة إلى وعي حقيقي تعرف به بالمرأة كيف تؤدي رسالتها على أكمل وجه، والمرأة أقدر من الرجل وأصلح منه للقيام بهذا العمل الإصلاحي العظيم في أوساط النساء.

٩ ـ يجب أن لا يسمح للمرأة بالاشتغال خارج منزلها، إلا حين تكون فقيرة لا عائل لها من زوج أو أب أو قريب، وذلك إلى أن ينفذ نظام الإسلام القاضي بإعالة مثل هؤلاء من بيت المال دون إلجائهن إلى ذل الكسب وإرهاق مطالب العيش.

١٠ ـ يجب منع التبرج وإبداء ما حرم الله إبداءه من جسمها وزينتها، ويجب وضع القوانين التي تحقق ذلك، ومعاقبة من تصر على إبداء معالم فتنتها للرجال بعقوبات متناسبة مع وضع المرأة ونفسيتها.

١١ ـ يجب إيقاف هذا الطوفان الخطير من أدب الجنس، وأن تتعاون الحكومة مع الشعب في هذا الشأن، وفي اعتقادي أن عبء هذا الإيقاف يقع ثقله على عاتق سيداتنا وآنساتنا الفضليات، بأن يبدين رأيهن صريحاً في استنكار هذا النوع من الأدب واستهجانه.

وأخيراً فأنا لا أخشى لومة لائم حين أعلن أن أمتنا لا ترضى أن تخرج عن حدود دينها، لأنها مقتنعة بصلاح نظامه وفلسفته، وأن كل خروج على حدود ما جاء به الإسلام نحو المرأة سيقابل من علماء الأمة وعقلائها، من جيلها المؤمن، من نسائها وبناتها الفضليات الكريمات، بالرفض والإعراض والمحاربة لكل من يحمل لواء مثل تلك الدعوة الآثمة[١].

ثم ألحق المؤلف بكتابه خمسة وخمسين ملحقاً توخى منها تأييد ما أورده في كتابه هذا من آراء في مختلف شؤون المرأة، من أجل أن يفتح المخدوعون بمظاهر حياة المرأة في الغرب أعينهم على واقع تلك الحياة البراقة الخادعة، فيعلموا أن الإسلام، كان وسيبقى أهدى سبيلاً من هذه الحضارة، وأبعد نظراً، وأكثر تقديراً، وأشد احتراماً للمرأة، حين رفع من شأنها، وأعطاها حقوقها، كما كان وسيبقى أحرص على سعادتها وهناءتها، حين منعها من التبرج والاختلاط، ووقاها شقاء العمل وأضراره، بإلزام الرجل الإنفاق عليها، لتتفرغ لشؤون الأسرة وتربية الأطفال.

وكانت هذه الملاحق التي استقاها من المراجع الغربية ذاتها، ومن غيرها من الكتب والصحف ووكالات الأنباء استغرقت ١٤٢ صفحة، منها:

المرأة قبل الإسلام ـ بيع الزوجات في أوروبة ـ في إنصاف الإسلام وتقديره للمرأة ـ رأي زعيمة الحركة النسائية في الشرق ـ في نصيب الأنثى من الميراث ـ حول تعدد الزوجات ـ يشجعون تعدد الزوجات ـ تعدد الزوجات عند الغربيين ـ دفاع أحرار الفكر في الغرب عن تعدد الزوجات ـ التعدد في نظر المنصفين المسيحيين ـ الغربيون يطالبون بما يشبه تعدد الزوجات ـ نتائج منع تعدد الزوجات في الغرب بالأرقام والإحصاء ـ سكرتيرات بدل تعدد الزوجات عند الغربيين ـ حول طائفة المورمول ـ رأي في تفسير آيات التعدد ـ تناقص عدد

(١) المرأة بين الفقه والقانون، ص٢٠٣ ـ ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

النائبات في البرلمات الغربية ـ أقوال الغربيين في المساواة ـ تبرم الغربيين من نتائج عمل المرأة خارج بيتها ـ المرأة في الحضارة الغربية ـ نسبة الانتحار عند الفتيان والفتيات في تصاعد مستمر ـ من نتائج توظيف المرأة في بلادنا ـ نتائج الاختلاط والتبرج في ازدياد نسبة الطلاق ـ عمل الأمهات خارج البيوت من مشكلات الحضارة الغربية ـ دناءة استغلال الرجل الغربي للمرأة عندهم ـ آثار أدب الجنس في الغرب ـ طبيب يعلن النفير العام للأطباء، لإنقاذ العاملات ـ حول ملكات الجمال ـ أزمة الحضارة الغربية يرجع أكثرها إلى تفكك الأسرة، وشيوع أدب الجنس ـ نصيحة أشهر ممثلة في الإغواء، للمراهقات قبل انتحارها (مارلين مونرو) ـ انهيار الشباب في الغرب نتيجة لأدب الجنس. . وهكذا. .

## ٣ ـ اشتراكية الإسلام

أصل هذا الكتاب محاضرة ألقاها الدكتور السباعي على مدرج جامعة دمشق عام ١٩٥٩م وطُبع طبعته الأولى، ثم زاد فيه وطبعه طبعة ثانية في نحو أربع مئة صفحة، وكان ينوي أن يزيد فيه، لولا شدّة الطلب عليه، وإلحاح المرض والمشاغل والمتاعب على مؤلفه، ثم كان قدر الله، والتحاقه بالرفيق الأعلى، قبل أن ينجز ما وعد.

وأما عن سبب تسمية الكتاب بهذا الاسم الذي نفّر منه عدداً من العلماء، فيقول:

«لقد سميت القوانين والأحكام التي جاءت في الإسلام لتنظيم التملك، وتحقيق التكافل الاجتماعي، باشتراكية الإسلام، وأنا أعلم أن بعض الغيورين على الإسلام، يكرهون هذه التسمية، لأنّ الاشتراكية في رأيهم، هي موضة هذا العصر. وقد يأتي زمن تبطل فيه هذه الموضة، ويسود مذهب اقتصادي آخر، فنضطر حينئذٍ إلى العدول عن القول باشتراكية الإسلام.

وهناك من يحاذر من القول بالاشتراكية الإسلامية، خوفاً من أن تستغلّ

المذاهب الاشتراكيّة ـ وخاصة الشيوعيّة منها ـ هذه التسمية، لتستخدمها في الدعوة إلى مذاهبها.

وأيضاً، فالإسلام نظام مستقل قائم بذاته، وقد سمّاه الله إسلاماً، فلا يجوز أن نسميّه باسم جديد.

ومن الناس من ينكر أن تكون في الإسلام أية نزعة اشتراكية.. كالشيوعيين».

فالأستاذ السباعي مدرك ما ستثير هذه التسمية من جدل ولغط واستغلال وتشويه، ومع ذلك، أصرّ على هذه التسمية.

لقد اجتهد الأستاذ الكبير، ونرجو أن ينال أجر ما اجتهد، وما نظنّه ـ نحن محبّيه إلى درجة العشق ـ إلا قد جانبه الصواب فيما اجتهد في التسمية، وفي دفاعه الحارّ عن هذا المسمّى الذي نكره، والذي سيموت في يوم قريب إن شاء الله، بعد أن تداعى ركنه العلمي، وهلكت دولته الكبيرة، وتبرأ ذووه منه، بعد أن أبادوا عشرات الملايين باسم الاشتراكية، وسحقوا شعوباً كاملة من أجل عينيها الناريتين الحاقدتين، وأثروا على حساب العمال والفلاحين وبسطاء الناس، وسرقوا ثروات البلاد والعباد في الاتحاد السوفياتي البائد، وفي سائر الدول التي تسمّت بالاشتراكية ودعت إليها..

ونحن نعرف الدوافع النبيلة التي حدت بأستاذنا الكبير ودفعته إلى اعتناق هذا النهج الدّعائي الذي تجافى به عن الجادّة، أما مضمون الكتاب فسليم، وليس فيه ما ينافي الإسلام وتعاليمه ومبادئه وعدله، كما أقرَّ بذلك علماء كبار ليسوا متّهمين في دينهم ولا في سلوكهم، ولا في عقولهم، وصحّة انتمائهم إلى هذا الدين العظيم، من أمثال فقيه العصر الشيخ مصطفى الزرقاء والأستاذ محمد المبارك، والأستاذ محمد المجذوب والشيخ علي الخفيف، وسواهم من علماء الإسلام الذين عرفوا زمانهم، واستقامت طريقتهم.. الخطأ في التسمية إذن، وليس فيما ورد في الكتاب من دفاع عن الإسلام، وشرح لنظمه الاجتماعيّة

والاقتصادية العادلة، ودعوة حارّة إلى هذا الدين الذي لا منقذ للبشرية سواه . .
لا منقذ لها من الوهدات السحيقة التي تردّتْ فيها، ومن الظلام الدامس الذي تعيش فيه، برغم كلّ الأضواء المسلّطة عليها، ومن قلق الروح، وفوضى الأخلاق وانحطاطها، ومن المظالم والمواجع التي تسحق مليارات البشر، وتطحنهم طواحين الآلاف القليلة من المترفين المستكبرين أصحاب العنجهيات الجاهلية المادية المغالية في القسوة والوحشية، البعيدة عن المعاني الإنسانية الكريمة، والمشاعر النبيلة، والسلوك المستقيم.

يتألف الكتاب من مجموعة أبحاث، شرح فيها نظام الإسلام الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، وبسط فيها عدالة الإسلام في هذه الميادين كافة، وتفوقه فيها على سائر النظم الوضعية، كالرأسمالية، والاشتراكيات المختلفة، بأسلوب علمي رصين، مشحون بروح السباعي الداعية الثائر على الفساد والمفسدين، وعلى الظلم والظالمين.

بدأ الكتاب بالحديث عن( موقف الأديان من الفقر) وأن الأنبياء جميعاً قد عُنُوا بحقوق الفقراء والضعفاء، وإن كان اليهود قد حرفوا النصوص الواردة عن أنبيائهم بشأن الفقراء، وقصروها على فقراء اليهود دون سائر الفقراء الآخرين، وهذا ما يتنزه عنه أنبياء الله وحملة رسالاته.

ورأى امتياز الإسلام ـ في معالجة مشكلتي الفقر والغنى ـ بميزتين:

الأولى: أنه لم ينظر إلى مشكلة الفقر على أنها مشكلة قائمة بذاتها، بل هي متصلة بغيرها من شؤون الحياة، فلا بدّ لمعالجتها معالجةً سليمةً، من معالجة سائر شؤون الحياة.

الثانية: أن الإسلام لم يعالج مشكلة الفقر بالمواعظ والوصايا الأخلاقية فقط، بل لا بدّ من سنّ القوانين الصارمة التي تحدّد الواجبات، وترهب المسيئين.

يقول السباعي:

«ومن أمعن النظر في قوانين الإسلام، وجد أن هذه القوانين كلها تتوخّى تحقيق مصالح الناس وحاجاتهم الضرورية، والرفاهية، وسعادتهم الاجتماعية في الحياة الدنيا، وسعادتهم الخالدة في الحياة الأخرى».

واتفق العلماء على أنّ الضروريات التي جاء الشرع لتحقيقها خمسة:

١ـ حفظ الدين ٢ـ حفظ النفس ٣ـ حفظ النسل

٤ـ حفظ المال ٥ـ حفظ العقل.

وصاغ السباعي نظرية (الاشتراكية الإسلامية) وفق المخطط التالي:

١ـ الحقوق الطبيعية لكل مواطن.

٢ـ القوانين التي تضمن هذه الحقوق.

٣ـ القوانين التي تضمن التكافل الاجتماعي.

٤ـ المؤيدات التي تدعم تلك الحقوق.

ثم تحدّث المؤلف عن (حقّ الحياة) للإنسان، وللحيوان غير الضارّ وغير المأكول، ثم انتقل إلى الحديث عن (حقّ الحرية) بأنواعها: الدينية، والإنسانية، والعلمية، والسياسية، والمدنية، والاجتماعية. ثم انتقل إلى الحديث عن (حقّ العلم) وكيف أشاد الإسلام بالعلم والعلماء، وفضّل العلماء على المنقطعين للعبادة، وحثّ على طلب العلم، وعلى الرحلة من أجله، وأوجب التعلّم والتعليم، وأن الإسلام لا يرى للعلم حدّاً ينتهي عنده العالم، كما وضّح مدلول العلم، وأقسامه، وأنّ منه ما هو فرض عين، وما هو فرض كفاية.

ثم تحدّث عن (حقّ التملك) وعقد فصلاً عن (إحياء الموات) وعن (الإقطاع) وعن (حقوق العمال) والمبادئ التي تكفل للعمال حياة كريمة مستقرّة، ثم تحدّث عن (التأميم) تأميم الصناعات، وتأميم المرافق العامة، وتأميم الأرض، وسواها، وقرّر أنه لا يجوز للدولة أن تلجأ إليه، إلا بعد أخذ رأي الخبراء الاقتصاديين والاجتماعيين، وهو يرى تأميم الكهرباء، والمياه، وبعض المواد

الغذائية الضرورية. وناقش القائلين بعدم جواز التأميم، ثم تحدّث عن (تحديد الملكيـة) وخلص إلى أن التحديد، إذا اقتضتـه مصلحة الأمـة، كان جائزاً، بل واجباً.

وتحدّث عن (قوانين التكافل المعاشي) وعن مبدأ التكافل الاجتماعي في الإسلام وأنواعه، كالتكافل الأدبي، والتكافل العلمي، والسياسي، والدفاعي، والجنائي، والأخلاقي، والاقتصادي، والعبادي، والحضاري، والمعاشي، ويرى أنها لو طُبقت في مجتمعنا، لكان مجتمعاً مثالياً لا يدانيه في رقيّه مجتمع آخر.

وتحدث عن (قوانين التكافل الاجتماعي) والفئات التي تستحقّ التكافل، ومـوارد نفقات التكافل، ثم قـارن التكافل الاجتماعي في الإسـلام بما عنـد الغربيين، وأسهب في ذكر المؤيدات الاعتقاديـة، والأخلاقيـة، والماديـة، والتشـريعية، كما قـارن بين الاشـتراكية الإسـلامية والرأسـمالية، وبينها وبين الشـيوعية، وخلص إلى أن اشـتراكية الإسـلام هي الأقدر على إسـعاد النـاس، وضرب الأمثال على ذلك من الواقع التاريخي، من العصر النبوي، ثم من عصر الخلفاء الراشدين، ومن دولة الأمويين، وفي العهود الأخرى.

تحدث عن الدولة الإسلامية فقال:

«كان العالم كله خارج الجزيرة العربية ـ يوم أعلن الإسلام تلك المبادئ والقوانين الاشتراكية ـ يسوده نظام الإقطاع، وتحكم الأغنياء بالجماهير، ولم يكن للفقراء ولا للعاجزين ما يستعينون به على ضعفهم وعجزهم، أو يدفعون به عن أنفسهم غائلة الجوع والحاجة، إلا أن يستجدوا الناس، وكانت المجتمعات تنظر إلى هؤلاء على أنهم كمية مهملة لا قيمة لها في الحياة الاجتماعية، بل هم عبء ثقيل على المجتمع، لا سـبيل إلى رفعه، لأن الفقر ـ في نظرهم ـ قـدر من السـماء، ينظر إليه بعضهم على أنه نعمة، وينظر إليه بعضهم على أنه من أنـواع الكمال والقربى إلى الله، وينظر إليه آخرون على أنه بلاء، يعاقب الله به عباده، كما يعاقبهم بالأمراض والموت.

فلما أن قامت للإسلام دولته الأولى في المدينة، تكوَّنَ أوَّلُ مجتمع ـ لا في الجزيرة فحسب، بل في تاريخ العالم كله ـ تسوده روح التعاون والتناصح والشعور بالمسؤولية: مسؤولية المجتمع نحو أبنائه، ومسؤولية كل فرد نحو إخوانه الآخرين».

ثم تحدث عن الدولة الإسلامية الفتيّة في عهد الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فذكر أول خطبة له حين قدم المدينة، وبين فيها أن أبرز شعارات هذه الدعوة، عمل الخير، والإنفاق في سبيل الله.

ثم كتب رسول الله ﷺ كتاباً (معاهدة) بين المهاجرين والأنصار، بيّن فيه دعائم الأخوة التي تقوم بينهم في المجتمع الجديد، وأقر فيه اليهود على دينهم وأموالهم، وعاهدهم على الحماية والنصرة ما أخلصوا للدولة الجديدة، والنظام الجديد».

ثم ذكر السباعي تسعة عشر مبدأ تضمنتها هذه المعاهدة، أخذ رسول الله ﷺ في تنفيذها، فعاشت ـ في الدنيا لأول مرة ـ عاصمة دولة لا تعرف الحقد، ولا الاستئثار، ولا البغي، ولا الفجور، ولا القسوة، ولا موت الضمير.

«ثم تطورت الدولة بعد ذلك، فأرسل الرسول ﷺ الولاة إلى جميع أنحاء الجزيرة، يجمعون الزكاة، ويصرفونها في مصارف التكافل الاجتماعي، فلكل فقير حاجته، ولكل متزوج إعانته، ولكل أعمى قائده، ولكل مُقْعَدٍ مساعده، ولكل مدين سداد دينه، ولكل من يموت فقيراً حماية أسرته بعد وفاته، وحُقنت الدماء، وحُفظت الأعراض، وصِيْنت الكرامات، وتحرر الناس من الجهل والخوف والخرافة».

«ثم توفي الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وتولى الخلافة بعده أبو بكر، وواجه حوادث الفتنة الداخلية» إذ ارتدت قبائل، وامتنعت أخرى عن دفع الزكاة، وخاضت الدولة الإسلامية معارك طاحنة، انتهت بدحر الفتنة، واسترداد الدولة الإسلامية حق الزكاة، وتنفيذ مبادئ التكافل الاجتماعي. «ونعتقد أن هذه أول

حرب في التاريخ، تخوضها دولة ما ، في سبيل تنفيذ التكافل الاجتماعي، وتمويل قوانينه».

«وكان أبو بكر ـ في حياته الخاصة ـ قدوة للناس، في عفته عن أموال الدولة، ومساواته نفسه بالناس في أعطياتهم ومعيشتهم».

وتولى عمر الخلافة من بعد أبي بكر، ونظم الدولة تنظيماً يتفق مع تطورها واتساع رقعتها، وكان من أهم أعماله تدوين الدواوين، تُسَجَّلُ فيها مصادر الدولة، ومواردها، وتُقَيَّدُ فيها أسماء ذوي الأعمال، وأصحاب الأعطيات والمحتاجين، الذين يستحقون نفقتهم من بيت المال، بمقتضى قوانين التكافل الاجتماعي، وكان يعطي الرجل على حسب كفاءته وبلائه في خدمة الدولة وسابقته في الجهاد وعلى قدر حاجته وكفايته، وكان يفرض لكل مولود مئة درهم، فإذا ترعرع زاده إلى مئتين، فإذا بلغ زاده كذلك.

«وقد طبق عمر نظام التكافل الاجتماعي على غير المسلمين، كما طبق على المسلمين».

كذلك استمر الأمر في عهد عثمان، وفي عهد علي، رضي الله عنهما.

«واستمرت الدولة ـ الأموية ـ تقوم بواجبها في تنفيذ نظم التكافل الاجتماعي، من جباية الزكاة، ورعاية الفقراء والحاجات الاجتماعية، حتى إن يوسف بن عمر كان يخصص في ميزانية إقليمه كل سنة، عشرة ملايين درهم للأحداث والبنات اللاتي لم يتزوجن».

«ولاشك في أن سياسة الأمويين قد انحرفت عن سياسة الخلفاء الراشدين من نواح عدة، لظروف مختلفة، ولكن تنفيذ نظام التكافل الاجتماعي ظل مستمراً كخطة من خطط الدولة العامة».

وفي العهود الأخرى، استمرت الدولة أو الدول الإسلامية تقوم بجمع الزكاة، وإنفاقها على المستحقين، بل إن الحروب الإسلامية كانت لتحقيق هذه المبادئ، ولقد نعمت الشعوب التي أظلها حكم الإسلام، بتحرير إنسانيتها

وكرامتها، وبحرية عقائدها، وبتثقيف عقولها بانتشار العلم في ربوعها.

وتحدث عن (المال في المجتمع الإسلامي) وقرر أنه كان مجتمعاً فيه الفقر والغنى، ولكن لم يكن فيه استغلال ومهانة، واستشهد بنماذج باهرة من أخلاقيات هذا المجتمع في المعاملات المتنوعة. يقول السباعي:

«مجتمع كان فيه أغنياء لا يخافون حقد الفقراء، لأنهم أدوا إليهم حق الله في أموالهم، وفقراء لا يخشون شح الأغنياء، لأنهم ما برحوا في فيض غامر من برهم وسخائهم، ولكن كانوا يتنافسون فيما بينهم، ويتسابقون إلى فعل الخير والحث عليه.

جاء الفقراء مرة إلى رسول الله ﷺ فقالوا:

- يارسول الله. ذهب أهل الدثور (الأغنياء) بالأجور: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم.

قال: أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به؟

إن لكم بكل تسبيحة صدقة، وبكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة... إلخ.

مظاهرة للفقراء من أغرب ما رواه التاريخ.. لم يحتشدوا فيها للاحتجاج على قسوة الأغنياء وظلمهم.. فذلك ما لم يقع لهم قط، ولكنهم احتشدوا ليعربوا عن آلامهم في تخلفهم عن الأغنياء في ميادين الخير والإحسان، فكيف يفعلون؟ إنهم يريدون أن يكونوا مثلهم، يفعلون الخير، وقد ظنوا أن سبيله هو المال فحسب، وهم لا يملكون ما ينفقون.

وكان جواب الرسول أروع ما يمكن أن يوجه إليه أمثال هؤلاء، ليكونوا بنائين للمجتمع، غير هدامين، إيجابيين غير سلبيين، عاملين لا عاطلين.. إن سُبل الخير ليست وقفاً على وجود المال.. بل إن سبلاً كثيرة يجدها كل إنسان ولو كان غير غني، فلا يحرم منها مواطن، ولا يحال دونها فقير، إنه كف اللسان

عن الثرثرة، بذكر الله وتسبيحه، والقيام بالإصلاح الاجتماعي عن طريق الموعظة الحسنة والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإماطة الأذى عن الطريق، وإعانة من يحتاج إلى عون، وفي إمداد المجتمع بالنسل الصالح».

ثم قدّم المؤلف نماذج من أخلاق هذا المجتمع في المعاملات، ومعاملة الجيران، ومواقفهم من أموالهم، واستجابتهم لدعوة الخير، وثقة بعضهم بحديث بعض، وعنايتهم باليتامى والمساكين، وإيثارهم إخوانهم، وحرصهم عليهم، وعتقهم للرقيق إذا أساؤوا إليه، إلى آخر ما هنالك من نماذج أخلاقية باهرة.

كما تحدث عن (الآثار الباقية في المجتمع من اشتراكية الإسلام) كإخراج الزكاة، والتكافل العائلي، والوصايا، والنذور، والأوقاف، وذكر من تلك الآثار واحداً وثلاثين نوعاً وما كان أجملها وأروعها!

ثم تحدث عن (الفرد المسلم) الذي تَمَثَّلَ هذه الروح طوال أربعة عشر قرناً، واستشهد بأمثلة بديعة من تاريخنا، هي تطبيق عملي لروح الإسلام، ومبادئه الإنسانية السامية.

وختم السباعي كتابه بكلمات رائعات قال:

«إن اشتراكية الإسلام:

أخذت من العرب وثنية متردية، وقبائل متفرقة، وحياة خشنة، وعزلة موحشة، وأعطتهم توحيداً متسامياً، وعيشاً رخياً، وأمة واحدة، وقيادة لمواكب النور في تاريخ الإنسانية كلها.

أخذت من العالم عقائده المتفسخة، وملوكه الظَّلَمة، وحيوانيته المتقاتلة، وأعطته عقيدة محررة، وقيادة ساهرة، وإنسانية بالنبل والخير زاخرة.

أخذت من العرب أبا جهل، وأعطتهم أبا بكر.

أخذت من الفرس مزدك، وأعطتهم أبا حنيفة.

أخذت من العراق رستم، وأعطتها سعداً.

أخذت من مصر المقوقس، وأعطتها عَمْراً.

أخذت من الشام هرقل، وأعطتها معاوية.

أخذت من العالم إمبراطوريتين أفنتا الشعوب: إمبراطورية الفرس في الشرق، وإمبراطورية الروم في الغرب.

وأعطت العالم حضارتين بعثتا الشرق الوثني، والغرب الهمجي من رقدتيْهما: حضارة بغداد في الشرق، وقرطبة في المغرب.

«إن اشتراكية الإسلام:

إلـٰهية في قدسيتها.

محمدية في قيادتها.

عربية في خصائصها.

إنسانية في نزعتها.

عالمية في رسالتها».

**ثم ألحق به ملحقين:**

الأول: جواب الإسلام على الشيوعية.

وهو الخطاب الذي ألقاه في المؤتمر الإسلامي ـ العالمي الذي عقد في (بحمدون) بلبنان عام ١٩٥٤م وكان لهذا الخطاب دوي حقيقي في نفوس المؤتمرين والحاضرين، فقد استطاع أن يحوِّل المؤتمر عن وجهته الأصلية، إلى مظاهرة انتصار للقضية الفلسطينية، والقضايا العربية والإسلامية الأخرى.

الثاني: كان بعنوان (مع المعترضين: خطتان مختلفتان) رصد فيه أصداء كتابه هذا في الأوساط الإسلامية، وناقش المعترضين عليه، وقال: إن جميع ما ذكرناه من مبادئ اشتراكية الإسلام وقوانينها مؤيد بأدلة من مصادر التشريع الإسلامي من الكتاب والسنة. وهذا حق لا مرية فيه.

## ٤ ـ من روائع حضارتنا

هذا الكتاب بديع في بابه، جاء في (١٦٠) صفحة، ويتألف من مقدمة وثلاثة عشر بحثاً كان أذاعها من إذاعة دمشق عام ١٩٥٥ .

عرّف الحضارة ـ في البحث الأول ـ وذكر عناصرها، ومقوماتها، وعوامل انهيارها، وقال: إن الحضارة سلسلة متواصلة الحلقات، وإن حضارتنا حلقة من سلسلة الحضارات الإنسانية، وقد تميزت بالخصائص التالية:

١ ـ الوحدانية المطلقة في العقيدة.

٢ ـ إنسانية النزعة والهدف، عالمية الأفق والرسالة.

٣ ـ أحلَّت المبادئ الخلقية المحل الأول في سائر نظمها، وميادين نشاطها.

٤ ـ تؤمن بالعلم، وتركز على العقيدة، وتخاطب العقل والقلب معاً، مع نجاتها من كل مآسي المزج بينهما، كما حصل في أوروبة في القرون الوسطى، فليس في الإسلام الذي قامت عليه حضارتنا، امتياز لرئيس، أو شيخ، أو شريف، أو غني.

وذكر أن كل الحضارات تقوم على عنصرين:

الأول: مادي، تتفوق فيه الحضارة اللاحقة على الحضارة السابقة.

الثاني: روحي أخلاقي، وهو الذي تخلد به الحضارات، وتعمل على إسعاد البشر. وقد سبقت حضارتنا سائر الحضارات في هذا الميدان.

وفي بحث (آثار حضارتنا في التاريخ) أجمل الآثار الخالدة لحضارتنا في خمسة ميادين، تأثر فيها الغرب بالمسلمين، وهي:

١ ـ ميدان الدين والعقيدة.

٢ ـ ميدان الفلسفة والعلوم التي كنا فيها أساتذة أوروبة طوال ستة قرون.

٣ ـ ميدان اللغة والأدب.

٤ ـ ميدان التشريع.

٥ ـ مفهوم الدولة، وعلاقة الشعب بالحكومة.

وفي بحث (النزعة الإنسانية) في حضارتنا، بيّن أن حضارتنا الإنسانية، نقلت البشرية من جِواء الحقد، والكراهية، والتفرقة، والعصبية، إلى جِواء الحب، والتسامح، والتعاون والتساوي أمام الله، ولدى القانون، وفي كيان المجتمع، تساوياً لا أثر فيه لاستعلاء عرق على عرق، أو فئة على فئة، أو أمة على أمة.. فالإسلام أعلن الوحدة الإنسانية بين الناس، وظهرت نزعته الإنسانية في تشريعه الحضاري، وفي قانونه المدني، وقانونه الجزائي.

ويستشهد المؤلف ببعض روائع هذه النزعة في المساواة بين الناس، بعيداً عن أي تمييز عنصري، كالذي يراه الناس في العصر الحاضر، في أمريكة، وفلسطين، وجنوب أفريقية في الميادين السياسية، والاجتماعية، والثقافية.

كما ظهرت في (التسامح الديني) في الإسلام ولدى المسلمين، وفي (أخلاقنا الحربية) التي حرّمت الحروب من أجل السلب والنهب وإذلال الشعوب، وأجازتها لغايتين:

الأولى: الدفاع عن عقيدة الأمة وأخلاقها.

الثانية: الدفاع عن حرية الشعب، واستقلاله، وسلامه.

واستشهد على أخلاقنا السامية، وسلوكنا السليم في الحروب، بحوادث وأقوال، في منتهى الروعة، على عكس ما فعله النصارى في حروبهم الصليبية، كإصدار البابا أمراً بتحويل جميع مساجد إسبانية إلى كنائس، عام ١٥٢٤م، ولم تمرَّ ـ بعد ذلك ـ أربع سنوات أخرى، حتى لم يبقَ في إسبانية التي حكمها المسلمون ثمانية قرون، مسلم واحد، بينما كانت سيرة صلاح الدين مع الأوروبيين الغزاة تشبه الأساطير.

وظهرت نزعتنا الإنسانية في (الرفق بالحيوان) فقد امتازت حضارتنا بأمور

لا مثيل لها عند الأمم الأخرى، في القديم والحديث، من مثل:

١ ـ مؤسساتنا الاجتماعية للعناية بالحيوان، وتطبيبه، وتأمين معيشته عند العجز والمرض والشيخوخة.

٢ ـ خلو حضارتنا من محاكمة الحيوان، برفع المسؤولية الجنائية عنه، على النقيض من فعل الأوروبيين.

٣ ـ خلو حضارتنا من مظاهر القسوة والتحريش بين الحيوانات.

وفي (المؤسسات الخيرية) برزت نزعتنا الإنسانية بأشكال وصور لم يعرفها شعب من قبل، فقد أقمنا مؤسسات اجتماعية لوجوه من الخير، والتكافل الاجتماعي، لم يعرفها الغربيون حتى اليوم، ولوجه الله تعالى مثل بناء المساجد، والمدارس، والمستشفيات، والفنادق، والخانات، والتكايا والزوايا، وبناء بيوت خاصة للفقراء، ومنها المطاعم التي يوزع فيها الطعام والشراب مجاناً، ومنها بيوت للحجاج في مكة المكرمة، وقد كثرت هذه البيوت حتى عمّت أرض مكة كلها، وأفتى بعض الفقهاء ببطلان إجارة بيوت مكة في أيام الحج، لأنها كلها موقوفة على الحجاج. ومنها حفر الآبار في الفلوات، لسقي الماشية والزروع والمسافرين ومنها أمكنة المرابطة على الثغور لمواجهة خطر الغزو الأجنبي للبلاد ومنها وقف الخيول، والسيوف، والنبال، وأدوات الجهاد على المجاهدين.

وهناك مؤسسات خيرية لتحسين أحوال المساجين، ورفع مستواهم الصحي والثقافي، وأخرى لتزويج الشباب والفتيات من الفقراء، ومؤسسات لإمداد الأمهات بالحليب والسُّكّر.

ومن أطرف مؤسساتنا الخيرية، وقف الزبادي للأولاد الذين يكسرون الزبادي، حتى لا يتعرضوا للعقوبة من ذويهم.

وقد أحصى المؤلف ثلاثين نوعاً من المؤسسات الخيرية في تاريخنا الحضاري، وهي غير موجودة لدى الأمم الأخرى.

وتحدث المؤلف عن (المدارس والمعاهد العلمية) في حضارتنا،

وانتشارها في سائر العواصم، والمدن، والبلدات، وكان لأساتذتها أزياء خاصة بهم، أخذها الغربيون عنهم، وكان المسلمون يقفون لها الأوقاف الكثيرة، حتى إن الإمام النووي (ت٦٧٦هـ) لم يأكل من فواكه دمشق طوال حياته، لأن أكثر بساتين غوطتها أوقاف سرقها الظالمون.

وتحدث عن (المستشفيات والمعاهد الطبية) وعن العناية بها، انطلاقاً من المبادئ التي قامت عليها حضارتنا، ومنها الجمع بين حاجة الجسم وحاجة الروح، لتحقيق سعادة الإنسان.

وضرب الأمثال، ابتداء من أول مستشفى أنشئ في الإسلام في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، وهو خاص بالمجذومين.

وذكر أن هناك نوعين من المستشفيات، منها الثابت، ومنها المتنقل، وقد بلغ أحد المستشفيات المتنقلة ـ في أيام السلطان محمود السلجوقي ـ حدّاً من الضخامة، بحيث كان يحمل على أربعين جملاً.

وأما المستشفيات الثابتة، فقد عمت المدن والبلدات الصغيرة، وكان في مدينة قرطبة وحدها، خمسون مستشفى.

وكانت هناك مستشفيات للجيش، والسجون، ومحطات للإسعاف، ومستشفيات عامة، منها ما كان للذكور، وأخرى للإناث، ويحتوي كل مستشفى على أقسام: للعيون، والكسور، وللأمراض الداخلية، والجراحة، وللأمراض العقلية.. وهكذا انطلق المؤلف يعدد ويصف، وكأنه يتحدث عن المستشفيات الحديثة جداً، وقد بلغ عدد الأطباء في بغداد وحدها (عام ٣١٩هـ ـ ٩٣١م) أكثر من ثماني مئة وستين طبيباً.

وذكر المؤلف في هذا البحث طرائف تدل على تقدم لم تبلغه أرقى المستشفيات في عصرنا، من مثل، أن المؤرَّقين من المرضى في المستشفى المنصوري الكبير، كانوا يُعْزَلون في قاعة منفردة، ويشنِّفون آذانهم بالألحان الشجية، أو بالاستماع إلى القصص التي يقصُّها عليهم ناس مختصون بالقص،

وكان الناقهون منهم، تُمَثَّل أمامهم الروايات المضحكة، ومشاهد من الرقص البلدي، وكان المؤذنون في المسجد الملاصق له، ينشدون الأناشيد العذبة في السَّحَر، ليخففوا من آلام المرضى الذين يضجرهم طول السهر.

وذكر المؤلف وقفاً غريباً في حضارتنا الإنسانية، مخصصاً ريعه لتوظيف اثنين يمران بالمستشفيات يومياً، فيتحدثان بجانب المرضى حديثاً خافتاً يسمعه المريض، بما يوحي بتحسن حالته، واحمرار وجهه، وبريق عينيه.

وتحدث عن (المكتبات الخاصة والعامة)، والشأو الذي بلغته في حضارتنا، وعن (المجالس والندوات العلمية) التي كان لها أثر كبير في نشر الثقافة وذيوع العلم، ورفع المستوى الاجتماعي، والذوق العلمي في الأوساط الثقافية، وتحدث عن (العواصم والمدن الكبرى) في القرن الرابع الهجري، وألقى نظرة سريعة على مدن العالم الإسلامي، والمدن الأوروبية، وقارن بينها ـ كدأبه في سائر أبحاث الكتاب ـ وكانت الفروق شاسعة، ففي العالم الإسلامي مدن زاخرة بالحياة والقوة والحضارة، وفي مدن العالم الأوروبي بدائية وتخلف، لا أثر فيها لحياة، أو علم، أو حضارة.

## ٥ ـ أخلاقنا الاجتماعية

يقع هذا الكتاب في (٢١٥) صفحة من القطع الكبير، واشتمل على مقدمة وسبعة وعشرين حديثاً، كان أذاعها من الإذاعة السورية بدمشق، تحدث فيها عما تشكو الأمة من ضعف وانحراف في أخلاقها الاجتماعية، بأسلوب سهل يفهمه سائر الناس، وكان ذلك فيما بين شهر نيسان ١٩٥٤م وآب ١٩٥٥م.. تحدث عن (أثر الفرد في نهضات الأمم) وأوضح أن عنايتنا بعلل المجتمع وأمراضه، كانت دون عنايتنا برزقه وثروته ومختلف شؤون حياته، ولهذا انصبت أحاديث هذا الكتاب في وصف هذه الأمراض، وعلاجها، وكانت حديث الروح للروح، والقلب للقلب، ولهذا استأثرت باهتمام الناس في سورية، فقد

كانوا ينتظرون هذه الأحاديث، ويتجمعون في المنازل والأماكن العامة لسماعها.

وكانت نقطة البدء في علاج أخلاقنا الاجتماعية من الفرد الذي هو الخلية الأولى في بناء المجتمع، والدعوات الإصلاحية تبدأ طريقها من الفرد، والذين صنعوا الدول، وأقاموا الحضارات، هم أفراد قويت إراداتهم، واستقامت أخلاقهم، وخلت حياتهم من كثير من الآفات النفسية والخلقية القاتلة.

ولإيجاد الفرد الصالح، أقيمت المدرسة والمعهد، وأقيم المسجد والمعبد، والجمعية والنادي.

وكان حديثه الثاني (بين الاحتقار والغرور) موضحاً خطر هذين المرضين: الغرور الذي لا يقل عن خطر الخيانة، واحتقار النفس الذي يجعل المصاب به، محطم الأعصاب، مسلوب الإرادة، فاقد الأمل، لا يثق بنفسه ولا بأمته، وتعاليم الإسلام تبث الثقة بالنفس ثقة لا يقتلها الغرور، بل يضعها في موضعها الحق.

وفي حديثه عن (البخل والسرف) عالج هذين الداءين الوبيلين، وأعاد سبب البخل إلى ضعف ثقة البخلاء بوعد الله ومثوبته لمن يبذل من ماله في الخير طائعاً مختاراً، وموت الشعور الاجتماعي في نفوسهم، واستيلاء الأنانية القاتلة على طباعهم، والإسلام ينهى عن البخل، كما ينهى عن الإسراف والتبذير.

وتحدث عن (الأنانية والإيثار)، وطالب الناس أن يعملوا الخير للخير، مُؤْثرين على أنفسهم، لا يرجون ثناء، ولا يطمعون في مكافأة، بل يرجون وجه الله وحده.

وتحدث عن سلبيات (الغلو في الحب والكره) وطالب بالاعتدال في كل أمر، فالإسلام نهانا عن المغالاة في كل شيء، نهانا أن نغالي في رسل الله، ونهانا عن الغلو في العبادة، ونهانا عن الإفراط والتفريط في النفقة، ونهانا عن اتباع الهوى في معاملتنا للناس، ونهانا عن العصبية الخارجة عن قواعد العدالة.. هذه هي روح الشريعة: اعتدال في كل شيء، ووسط في كل أمر، ونحن الأمة الوسط.

وتحدث عن (الفردية والجماعية)، وبيَّن أن العبادات في الإسلام تقوم على فكـرة التعاون الاجتماعي بين المؤمن والنـاس، وضرب مثلاً بالصلاة، والصيام، والحج، والزكاة، وقارن بين ما كان عليه الناس قديماً، وبين الإسلام.

وبدأ حديثه (بين التملق والنصيحة) بما كان من شأن العالم الفقيه (منذر ابن سعيد) قاضي الجماعة، مع الخليفة عبد الرحمن الناصر، ومدينته الخالدة (الـزهراء) فقد نصحه وأغلظ القول معه في خطبة الجمعة في مسجد قرطبـة الكبير، وكان الخليفة يستمع لما يقول وينصاع.

ثم عقب بقوله:

«ترى.. لو أن كل ذي رأي ومكانة ونفوذ في الدولة، وقف من الحكام الجائرين المنحرفين ما وقفه منذر بن سعيد، من عبد الرحمن الناصر، أما كانت الأمة تنعم بحكم عادل، ورفاهية شاملة، وسعادة تُظل الناس جميعاً؟»

ثم ضرب الأمثال من تاريخنا وحضارتنا، مؤيداً رأيه هذا. وأهاب بأبناء الأمة أن يكونوا للحق أنصاراً، وللمخطئين ناصحين، وللظالمين مقاومين ومنكرين، لتعيش الأمة حرة كريمة، أما إذا سمحوا للمنافقين أن يلتفوا حول الحكام، وللأقلام المأجورة أن تمجد المجرمين، فقد صنعوا بأيديهم حكم الطغاة والفاسدين، واختاروا لأمتهم طريق الخراب والدمار «إن عدالة الله تأبى أن تمنح الكرامة لمن يضيعها بيديه».

وحديثه (بين النصيحة والتشهير) لامس مرضاً خطيراً في حياتنا الاجتماعية بعد أن اضطربت حدود النصيحة، وانقلبت أحياناً إلى التشهير، مما ينذر بشـر خطير.

وفي حديثـه (بين الحريـة والفوضـى) تحـدث عن الصراع بين الحريـة والعبودية في تاريخ الإنسانية، وفي تاريخ معاركنا التي خاضتها أمتنا في سبيل تحرير الشعوب من جهالتها وفوضاها، ومن استبداد الظالمين.

ولكن.. كما أسيء استغلال الحرية عند الغربيين، أسيء فهمها عند كثير

من أبنائنا تلامذة الغربيين، وذكر ألواناً قاتمة من المفهومات المغلوطة للحرية الفكرية، والحرية الشخصية، والحرية الصحفية، فهي تعني عندهم، تسميم العقول والأفكار، وإيذاء القلوب والضمائر، ونهش الأعراض واستباحة الحرمات، وإشاعة الفوضى والإباحية، مع أن مجتمعنا في حاجة إلى من يضبط له أمره، ويصون أخلاقه، ويرده إلى الحق، ويلزمه حدود الشرائع والقوانين، وهذا كله أمانة في أعناق العلماء والمفكرين والمصلحين والخطباء والكتاب والصحفيين.

وجاء حديثه (بين الحزم والاستبداد) مبيناً للفروق الحقيقية بينهما، وضرب الأمثال بالحكام الحازمين، وأخرى للحكام المستبدين، وبيّن مآسي الاستبداد ومنطقه الآثم، وأن فوضى الحكم، هي أول سبيل إلى الاستبداد، وأن الاستبداد هو أقتل شيء لكرامة الأمة وحريتها، وتمنى أن يقوم فينا حكم يعدل في الحق ولا يظلم، ويشتد في الحكم ولا يستبد.

وفي حديثه (بين الصدق والكذب) رأى أن الصدق أساس الفضائل النفسية، وهو ضرورة اجتماعية، وهو أكبر أبواب السعادة للأفراد والجماهير، بينما الكذب جبن وخسة، وجرأة على الله، يستحق الكاذب من أجلها اللعنة والطرد من رحمة الله، والكذاب لن ينجح في حياته، ولن يهتدي إلى الخير والحق.

وفي حديثه (بين الدين والطائفية) قال:

«إن كثيرين يظنون أن علاج هذه الطائفية المدمرة هي دعوة الناس إلى ترك أديانهم.. وليس أبعد في الوهم والخطأ والضلال من هذا الظن، فما كانت الأديان يوماً وسيلة حرب، ولا أداة خراب، ولا باعثة شقاء وفناء..

«إن الفرق بين الدين والطائفية، هو فرق ما بين العلم والجهل، والحق والباطل، والخير والشر، والإيمان والعصيان».

الدين: هداية الرسل إلى الله، وطريق الناس إلى الجنة، والطائفية قيادة

الأشرار إلى الدمار، والطريق المستقيم إلى النار. .

«أيها الناس: ارجعوا إلى الدين، واطرحوا طائفيتكم. . أيدوا دعوة الدين، وحاربوا دعاة الطائفية. كونوا متدينين، وحذار أن تكونوا طائفيين».

وفي حديثه (بين التعصب والتسامح) رأى أن تعصب الفرد لحقوقه الضرورية، وتعصبه لحقوق أمته وبلاده، خلق كريم يعود على المجتمع بالخير والبركة، كما أن تفريطه بذلك، وتسامحه فيه خلق ذميم ينشأ عنه كل فوضى في المجتمع، وكل إهدار لكرامة الأمة، وسيادة الدولة.

وحديثه (بين الأمانة والخيانة) كان معرضاً لألوان من الأمانة في تاريخنا الناصع، ولما تعانيه أمتنا اليوم من الشكوى من سوء الأوضاع في مجتمعنا الحاضر، وسبب كل ذلك، تضييع الأمانة، فقد تخلى العالم عن أمانة العلم، فإذا هو يبيع علمه لمن يشتريه من طغاة وحكام ظالمين ومفسدين، وتخلى الحاكم عن أمانة الشعب، فإذا هو يفرق بين المواطنين، ويتجاوز عن أخطاء أتباعه من الموظفين، ويهمل القانون، ويتلاعب بنصوصه. . وتخلى الشعب عن أمانة المراقبة لزعمائه، فتملقهم، وأغضى عن خطيئاتهم، وصفق لهم بيده، وأيدهم بلسانه، وتخلى الموسرون عن أمانة المال فاكتنزوه، وتخلى الرجل عن أمانة الأسرة. . وهكذا. .

وأما علاج هذا المرض، فبالرجوع إلى الله، والطمع في جنته، إن هو أدى الأمانة، والخوف من ناره، إن هو ضيعها، وباستيقاظ الضمائر.

وهكذا انطلق المتحدث البارع يعرض أمراض مجتمعنا، في دهاليز السياسة، وفي البيوت، وفي الأعياد وبين الموظفين والشعب، وكان في كل حديث منها، يستشهد بالقرآن العزيز، وبالأحاديث النبوية الصحيحة. وبحوادث التاريخ، وبالنماذج الوضيئة في حضارتنا الخالدة، من لدن رسول الله ﷺ حتى العصر الحاضر، ويقارن بينها وبين ما كانت عليه المجتمعات غير المسلمة، مما يبرهن على سعة ثقافة، وحدة إدراك، واطلاع على التاريخ والفلسفات،

والأديان، وأحوال المجتمعات، ودراية بما يموج فيها من تيارات، وما يعتمل من أمراض يحرص على علاجها، فيهيب بالمواطنين أن ينهضوا للعلاج، ويتخلصوا منها، لتعود العافية إلى مجتمعاتهم، ويستأنفوا السير في مدارج حضارتهم.

## ٦ ـ دعوة الإسلام واقعية لا خيال

ألقى إلياس فرح ـ المدرِّس في دار المعلمين بحلب، ورئيس القسم الثقافي في حزب البعث العربي الاشتراكي ـ خطبة في احتفال أقامه حزب البعث في حلب، بمناسبة العدوان الفرنسي، أقيم في ٢٩/ ٥/ ١٩٥٥م زعم فيها أن الدعوة الإسلامية غير صالحة للحياة، لأنها خيالية، لا يمكن لها أن تعيش، ولا بد أن تموت.

كما كان إلياس فرح كتب رسالة بعنوان (نظرتنا إلى التاريخ العربي) وطبعها ووزعها له حزب البعث، بسط فيها هذا الرجل النصراني لسانه في الإسلام، وشرعته المطهرة، كما يبسطه أشد الناس عداوة وحقداً على الإسلام وحقائقه الثابتة، فما كان من الدكتور السباعي إلا أن يرد عليه بهذه المحاضرة القيمة التي ألقاها في المركز العام لجماعة الإخوان المسلمين في حي الشهداء بدمشق، في حديث الثلاثاء ١٤/ ٦/ ١٩٥٥م جاء فيها:

**١ ـ مقياس الواقعية في الدعوات:**

«إن مقياس (الواقعية) في الدعوات، وعلائم الحياة فيها، هي أن تجتمع لها ثلاثة عناصر رئيسة هي: الذاتية، والتقدمية، والشمولية.

**أ ـ الذاتية:**

ونعني بالذاتية أن تكون الدعوة منبثقة من طبيعة الأمة، منسجمة مع خصائصها، مستوحاة من حاجاتها، حتى تكون تعبيراً روحياً صادقاً عن آمالها وطموحها.

ب ـ التقدمية:

ونعني بها أن تكون الحركة الإصلاحية، مسايرة لتطور الحياة، وتقدم الحضارة، لأن طبيعة الحياة لا تقاوم، وسنة الله في تطور الإنسان وتقدمه لا تتبدل، فمن وقف في وجه الحياة صرعته».

جـ ـ الشمولية:

«ونعني بها أن تحتوي الدعوات الإصلاحية مناهج الإصلاح لكل نواحي الحياة في المجتمع الذي تقوم فيه، لأن المجتمع وحدة متماسكة، فالأخلاق لا تنفصل عن الاقتصاد، والسياسة لا تنفصل عن العلم. فالدعوة إلى إصلاح الأخلاق في أمة، لا يمكن أن تنجح إلا إذا رافقها إصلاح الأوضاع الاقتصادية فيها، والدعوة إلى تحرير الأمة سياسياً من الاستعمار أو الطغيان، لا تنجح إلا إذا رافقها إصلاح الأخلاق، ونشر العلم، وتهذيب النفوس».

«فهذا هو المقياس الصحيح لواقعية الدعوات، وصلاحيتها للحياة، فما هو نصيب الدعوات الأربع التي تحتل ساحة النشاط الفكري والسياسي والاجتماعي في بلادنا؟ ونعني بها: القومية السورية، والشيوعية، والقومية العربية، والدعوة الإسلامية».

ثم يشرع في تحليل كل دعوة منها على ضوء هذا المقياس، مبيناً مدى واقعيتها واستحقاقها للحياة أو الموت. كل ذلك جاء بأسلوب هادئ موضوعي بعيد عن التحيز والتعصب، إلى أن يصل إلى عناصر الواقعية في الدعوة الإسلامية فيقول:

أ ـ ما هي مبادئ الدعوة الإسلامية وأهدافها؟

«لا نريد ـ هنا ـ أن نفيض في مبادئ الدعوة الإسلامية، وبرنامجها، وأهدافها، وفلسفتها، فذلك له مجال آخر، وإنما نريد التدليل على واقعيتها، واشتمالها على كل عناصر الواقعية المطلوبة في الدعوات التي يكتب لها الحياة.

إن الدعوة الإسلامية تقوم على مراعاة الحقائق التالية:

أولاً: إن مجتمعنا يعاني فساداً داخلياً يعم كل ناحية فيه.

ثانياً: إن مجتمعنا بحاجة إلى حركة إصلاحية تعالج أوضاعه السيئة معالجة شاملة.

ثالثاً: إن مجتمعنا انبثق عن الإسلام، ومازال يعيش في أجوائه.

رابعاً: إن الإسلام دين الحياة الكريمة، يجعل من أمته أقوى أمة، وأعزها، وأسعدها، وأجدرها بقيادة العالم.

خامساً: إن انحطاط العالم الإسلامي كان بسبب ابتعاده عن الإسلام.

سادساً: إن الإسلام دين مرن صالح لكل زمان ولكل أمة.

سابعاً: إن الإسلام يضع الأسس الصالحة في كل عصر، لبناء مجتمع كريم.

ثامناً: إن الإسلام نظام كامل شامل للحياة الإنسانية، يوجهها نحو الخير والحق والسعادة.

تاسعاً: إن الإسلام رسالة عالمية للإنسانية كلها، يعلو على النزعات القبلية، والقومية، والعنصرية، والطائفية، والإقليمية.

عاشراً: الإيمان برسالة الإسلام، أقوى صلة تربط بين أفراد الناس، مهما اختلفت مواطنهم وعناصرهم.

هذه الحقائق العشر هي التي تقوم الدعوة الإسلامية الحديثة على اعتبارها، وفهمها هو الطريق المفضل لفهم الدعوة الإسلامية، وبيان اتجاهاتها.

أما أهداف الدعوة الإسلامية الحديثة فهي:

- إصلاح الأوضاع الاجتماعية إصلاحاً جذرياً عميقاً، يقضي على كل مظاهر الفقر والفوضى والظلم والضعف والجهل.

- إصلاح الأوضاع السياسية في الداخل والخارج، إصلاحاً قوياً جريئاً يقضي على كل آثار الخيانة والاستغلال والارتجال والتردد.

إننا نهدف إلى إيجاد المجتمع القوي في داخله، بالعلم والخلق والعدل والتعاون، وإلى إيجاد المجتمع القوي في خارجه بالسلاح والجرأة والاستعداد.

وبذلك - إن التقينا مع كل الدعوات في مطالبها الإصلاحية - نختلف معها في أفق الإصلاح وميدانه ووسائله.. إن رسالتنا أكرم الرسالات مقصداً وأهدافاً، ووسائلنا أنجح الوسائل[1].

## ٧ - الإخوان المسلمون في حرب فلسطين

تحدث السباعي فيه عن اهتمامه المبكر بالقضية الفلسطينية، وعن لقائه بعض المجاهدين، وعن إلقائه أول محاضرة له عن فلسطين، وتحدث عن المحاور الثلاثة التي انطلق فيها الإخوان المسلمون - وكان على رأسهم - يعملون من أجل القضية الفلسطينية، وهي:

١ - الصعيد الرسمي بتقديم المذكرات للحكومة، والجامعة العربية.

٢ - الصعيد الشعبي، بالمحاضرات والاجتماعات العامة في المدن والقرى.

٣ - الصعيد العملي، بزيارة فلسطين، والاطلاع على أحوال اليهود فيها.

وبعد قرار التقسيم عام ١٩٤٨م عقدوا اجتماعات عامة، بينوا فيها خطورة ما يجري، ووضعوا ميثاقاً، وأخذوا عهداً على الجماهير، بتأليف جيش لتحرير فلسطين، يتطوع فيه كل قادر على القتال، وأعلنوا فتح باب التطوع في مراكزهم في جميع أنحاء البلاد، وبرفض التقسيم، والدفاع عن عروبة فلسطين.

«وأقبل الشعب إقبالاً منقطع النظير على تسجيل أسمائهم كمتطوعين في جيش التحرير المرتقب، ولكن الحكومة فاجأتنا بقرار يمنع أية هيئة من تسجيل المتطوعين. وكان واضحاً أننا المقصودون بهذا القرار، إذ لم تكن هناك هيئة

---

(١) جريدة الشهاب: ٢٧.

أعلنت قبول المتطوعين غير الإخوان. ثم اتخذت الجامعة العربية قراراً بتأليف جيش الإنقاذ، وافتتحت الحكومة مراكز للتطوع».

وتحدث عن التخلف الفكري لدى بعض المسؤولين، وعن معاناته في جمع الأسلحة للمتطوعين، وعن التدريب في معسكر قطنا، ومنه كان الانطلاق إلى فلسطين، فسافر الفوج الأول من إخواننا، ثم الفوج الثاني.

وتحدث عن مشاعر الإخوان وهم يدافعون عن المسجد الأقصى، ويحافظون على الأمن في المدينة المقدسة، ويطاردون اللصوص والفجار، ويغلقون الخمارات وأندية القمار، ثم تحدث عن (معاركنا في القدس) وعن (اشتداد المعارك بعد جلاء الإنجليز) في ١٥/ ٥/ ١٩٤٨م عن فلسطين، بعد أن تآمروا مع اليهود، كدأبهم على مدى الزمان، وسلموهم مراكزهم وثكناتهم بما فيها من أسلحة، وتحدث عن بطولات الإخوان في معركة (القطمون)، ومعركة (الحي اليهودي) في القدس القديمة، وعن نسف الكنيس اليهودي الذي كان مشرفاً على المسجد الأقصى، وكان اليهود يتخذون منه مركزاً حربياً يطلقون منه نيران بنادقهم ورشاشاتهم على المسلمين الذين يتجولون في حرم المسجد الأقصى».

ثم تحدث عن (معركة القدس الكبرى) وبطولات الإخوان فيها، وما قدموا من شهداء وجرحى، وما أصابوا العدو، في الوقت الذي «كان أكثر جيش الإنقاذ يتنزه في مناطق عربية بحتة، كنابلس، بينما كانت حيفا ويافا وغيرهما تسقط في أيدي اليهود، وكانت مجازر دير ياسين تقع على سمع هذا الجيش وبصره».

«وبعد أيام قليلة، وقعت الهدنة المشؤومة، وجاءتنا الأوامر من قيادة جيش الإنقاذ في دمشق، بالانسحاب من القدس، وتسليمها إلى الجيش العربي، بحجة أننا سنرسل إلى الجبهة السورية».

وتحدث عن التعاون الوثيق بين كتائب الإخوان المصريين، والأردنيين، والسوريين، كل ذلك في اقتضاب، لأن المقال لا يتسع إلى أكثر من ذلك.

ثم أبدى بعض الملاحظات على معركة فلسطين، بعد أن سرد بعض الوقائع التاريخية:

١ ـ أن جيش الإنقاذ كان تسكيتاً لشعور العرب، ولم يقصد من تشكيله القتال الجدي ومنع سقوط المدن والقرى العربية في أيدي اليهود.

٢ ـ أن قيادة جيش الإنقاذ لم تخض معركة جدية واحدة.

٣ ـ أن مهمة جيش الإنقاذ، تحطيم منظمة (الجهاد المقدس) البطلة.

وأخيراً، تحدث السباعي عن عشرة من الشهداء حديثاً مقتضباً أيضاً.

## ٨ ـ أحكام الصيام وفلسفته في ضوء القرآن والسنة

جاء هذا الكتاب في ١١٢ صفحة من القطع الكبير، عرض فيه أثر الصيام في تربية الأفراد والمجتمعات تربية عالية، تسودها أخلاق الرجال.

والكتاب ثلاثة أقسام، ذكر في القسم الأول آيات الصيام وأحاديثه، وبعض الأحاديث الواردة في العيد، وكلها من الصحاح، ثم عرض هدي النبي ﷺ في الصيام والعيدين، فتحدث ـ بإيجاز ـ عن عبادته وسخائه في رمضان، وعن فطره قبل الصلاة، ودعائه عند الإفطار، وإفطاره في السفر، ثم عن هيئته وحاله في العيدين.

ثم انتقل إلى أحكام الصيام، فأكد إجماع المسلمين على وجوب صيام شهر رمضان، وشروط وجوبه وأركانه، ومفسدات الصوم، ومكروهاته، وآدابه، وتحدث عن صدقة الفطر، وأحكامها.

وكتب ـ في القسم الثاني ـ إحدى عشرة مقالة كان نشرها في الصحف، هي: الوافد الحبيب ـ رمضان شهر الحق ـ رمضان شهر القوة ـ رمضان شهر الحرية ـ فلسفة الصيام وأسراره ـ رمضان شهر المواساة ـ أثر العبادة في تربية الأمة ـ مؤسسة الزكاة ـ رمضان يتحدث ـ رمضان يردع ـ فلسفة العيد.

كان فيها ناقداً اجتماعياً لكثير من المواضعات التي يأباها المسلم الحق، وعيناه دائماً على الفقراء الذين يقتاتون الحرمان، وعلى الأغنياء المترفين المتخمين، وكان فيها فيلسوفاً اجتماعياً، شعبياً، قريباً من القلوب المؤمنة التي كان يخاطبها خطاب الأخ لأخيه، والأب الحاني لأولاده.. لا يغفل عن واقع الأمة السياسي، والاقتصادي، والاجتماعي، والثقافي، والروحي.

## ٩ ـ هذا هو الإسلام

يقع هذا الكتاب في جزءين، ويحتوي على ثماني رسائل جاءت في ٣٢٦ صفحة، رأى الأستاذ السباعي أن ينشرها تحت هذا العنوان: هذا هو الإسلام.. بعضها محاضرات ألقاها في مناسبات، وبعضها أبحاث، نشرها في الصحف على حلقات، وبعضها يأخذ سمت الكتاب، وهذه الرسائل هي:

**١ ـ منهجها في الإصلاح:**

نستمده من حاجة الحاضر على ضوء الماضي.

وهي خلاصة المحاضرة التي ألقاها في المكتبة الوطنية في حمص، بمناسبة ذكرى المولد النبوي، وبيَّن فيها فكرة (الإخوان المسلمين) ومنهجهم الإصلاحي، وأسس دعوتهم التي أخذت تحتل مكان الصدارة بين الدعوات الإصلاحية الحديثة.

تحدث فيها عن أهمية هذه الذكرى، وواقع العرب يوم ولد محمد ـ ﷺ ـ وكيف عالج الرسول ذلك الواقع، ليكون بذلك الرسول القائد.

ففي المجال الداخلي، صحح العقيدة، وحررها من خرافات الوثنية الجاهلية، وبذلك حرّك الإسلام العقل، لينطلق مفكراً باحثاً، بعد أن كان أسيراً خامداً.

ثم عمد إلى تربية الفرد فسما بروحه إلى آفاق الكمال، وهذب من طباعه

وأخلاقه، وعني بتقوية الروح الاجتماعية، ومحاربة القبلية والعائلية والانعزالية في نفسه.

وأوجد المجتمع العادل، وصحح الميزان الاقتصادي، وحقق العدالة الاجتماعية بين الأغنياء والفقراء، وصحح العلاقة بين الشعب والدولة، وبين الفرد وأبناء الشعب كله.

ثم تحدث عن إفادة الرسول القائد من استعداد الأمة العربية لصنع الحضارة والتاريخ، فهيأها لحمل رسالة الإصلاح، وعمل على تخليص الأجزاء المحتلة من الجزيرة العربية، تمهيداً لقيادة ركب العالم التائه الحائر المضطرب.

ثم بين هدف الحروب الإسلامية، وخطة الرسول القائد في إصلاح العرب والعالم، وهي ذات روح تجددية تقدمية.

ثم انتقل إلى الواقع المعيش الذي يشبه - إلى حد بعيد - واقع العرب قبيل عصر الرسالة، ثم ناشد الناس أن يستفيدوا من هذه الذكرى ما تنفحنا به من عبر:

١ - بأن تكون حركتنا منبثقة من صميم الأمة، وواقعها، وشخصيتها.

٢ - وأن ننظم بنياننا الداخلي، فنصلح العقائد، ونهيئ الفرد الكامل، والمجتمع العادل.

٣ - وأن نحرر أجزاء وطننا الرازحة تحت أعباء الجهل والاستعمار.

٤ - وأن نحمل راية الإنقاذ، لنخلص العالم من ويلاته.

٥ - وأن نوائم بين الحاضر والماضي، ويكون سيرنا إلى الأمام دائماً.

٦ - وأن نستفيد من كل ما عند الأمم استفادة البصير الناقد، لا الأعمى المقلد.

وفي نهاية المحاضرة حذر الشعب من الانحياز إلى أحد المعسكرين: الشيوعي أو الرأسمالي، ودعاه إلى الحياد.

٢ ـ الدين والدولة في الإسلام:

وهي «محاضرة ألقاها في الخلية الاجتماعية في بيروت على فريق من طلاب الجامعات والمعاهد العليا في بيروت.

وقد بدا أثر هذه المحاضرة واضحاً لدى كثير من معتنقي فكرة فصل الدين عن الدولة، إذ لم يسعهم، بعد أن سمعوا هذا البيان المستفيض، والتعليل العلمي التاريخي لتلك الفكرة، إلا أن يعلنوا اقتناعهم ببطلانها، وبطلان ما تستند إليه من حجج وبراهين».

وتقع المحاضرة في تسعين صفحة، بدأها بذكر أدلة القائلين بفصل الدين عن الدولة، ثم ناقش تلك الأدلة، معرفاً كلاً من الدين والدولة، وأن العلاقة بينهما إيجابية، وأن تحوُّل تلك العلاقة إلى سلبية كان بفعل عوامل اضطرته إلى استعراض تاريخها في اليهودية، و في المسيحية، وفي الإسلام، وبسط القول في موقف الإسلام من الدولة، وقد مر ـ الموقف ـ في أربعة أطوار، هي:

طور التعاون: بيَّن فيه اشتمال الإسلام على: العقائد، والعبادات، والآداب، والقوانين العامة.

ثم شرح ـ في إيجاز ـ كلاًّ منها، وبيَّن مدى علاقة الإسلام بالدولة، وموقفه منها، وأوضح أن القوانين العامة في الإسلام، تهدف إلى توفير الكرامة، والسعادة، والسلام للناس جميعاً، لأنها تدور حول الحقوق الأساسية الضرورية لكل إنسان، وهي حق الحياة، وحق العقيدة، وحق العلم، وحق العمل، وحق الكرامة، لأن الأسس التي تقوم عليها هذه القوانين كلها هي: العدالة، والمساواة، والتيسير، والمصلحة.

ثم تحدث عن مزايا الدين، ودعائم الدولة في الإسلام، وتعاون الدين والدولة، واستشهد بعصر صدر الإسلام، وبأيام الأمويين والعباسيين، ليصل إلى القرن الخامس الهجري، حيث يبدأ:

الطور الثاني: طور التباعد، وقد امتد حتى أوائل القرن الثالث عشر

الهجري ـ التاسع عشر الميلادي، حيث يبدأ:

الطور الثالث: طور الجفاء، فقد كانت الإمبراطورية العثمانية مليئة بأسباب الفساد والانحلال، وكان الغرب باسطاً جناحيه على العالم القديم والجديد. . وبدأت الحياة الإسلامية تختلط بالحياة الغربية، وتتأثر بها.

الطور الرابع: طور العودة إلى التعاون، وكان بظهور عدد من المصلحين في دياجير الظلام التي كان يتخبط فيها المسلمون، ومن أبرز المصلحين: جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وطاهر الجزائري، وجمال الدين القاسمي، ومحمد رشيد رضا، والحركات الإسلامية، كحركة الإخوان المسلمين وغيرها.

ثم أجرى مقارنات بين الإسلام والمسيحية، وبيَّن أنه ليس في الإسلام رجال دين، كما لدى النصارى، بل لدى الإسلام فقهاء، يعلّمون الناس أحكام دينهم، ويمدّون الدولة بمشروعات القوانين اللازمة، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويعملون من أجل الحفاظ على أموال الشعب أن يبعثرها الحكام هنا وهناك، ويقفون في وجوه الخونة والطغاة، ويسعون لصيانة الحريات الدينية، وجاء بأمثلة صارخة على كل فكرة، من تاريخنا الحضاري.

ثم ناقش دعاة فصل الدين عن الدولة في بلادنا نقاشاً علمياً متزناً، ولكنه ممزوج بحرارة الإيمان، وقوة الروح، ولهب العاطفة، وجاء بأمثلة من الشرق ومن الغرب، ومن القديم ومن الحديث، ليقنع الشاردين وقد أقنع.

### ٣ ـ مشروعية الإرث وأحكامه في الإسلام:

وفيها شرح وافٍ لمشروعية الإرث وأدلته، وإجمال لأهم المبادئ التي يقوم عليها نظام الإرث، وأهم قواعده وأحكامه، مما لا يستغني عن معرفته طلاب الثقافة الإسلامية فقد وضح فيه مشروعية الإرث، وناقش المعترضين عليه، ثم بيّن مبادئ الإرث في اليهودية والمسيحية والإسلام، ثم بين أركان الإرث، وأسبابه، وشروطه، وموانعه، والحقوق المتعلقة بالتركة، ودرجات الاستحقاق وأصحاب الفرض.

### ٤ ـ جواب الإسلام على الشيوعية :

وهو نص الخطاب المهم الذي ألقاه في المؤتمر الإسلامي ـ المسيحي الذي عقد في بحمدون بلبنان في ٢١/ ٨/ ١٣٧٣هـ ـ ٢٥/ ٤/ ١٩٥٤م وكان له دويه الإعلامي، فقد فضح فيه المؤتمرين الأميركيين، من خلال حديثه عن المشكلات التي تعاني منها البلاد العربية والإسلامية، وخاصة مشكلة فلسطين، بأسلوب صريح، كان له أثره في أوساط المؤتمر، جعله يتخذ قراراً بشأن فلسطين واللاجئين، وعدل ميثاقه بشكل يعترف بما جاء في هذا الخطاب، من وجوب تعديل سياسة الدول الغربية وأمريكة في بلاد العروبة والإسلام، وفق مبادئ الحق والعدالة.

### ٥ ـ المرونة والتطور في التشريع الإسلامي :

في هذه الرسالة بيّن خلود الإسلام، وعظمة تشريعه المرن ليزيل كل لبس، ويوضح كل إبهام.

وقد ذكر أن عناصر النجاح في كل تشريع هي : (المرونة، وقابلية التطور وفق الحاجات المتغيرة المتجددة) وشرح فكرة التطور في الإسلام، وأن عالمية الإسلام دليل على شرعة التطور فيه، وأن في التشريع الإسلامي ثوابت لا تقبل التطور، كالعقائد والعبادات، والأخلاق، والآداب الاجتماعية، والنظريات الأساسية بتشريع، كنظام الأسرة، ونظام الإرث ونظام الجنايات، ونظام المال، ونظام الحكم، ونظام السلم والحرب، وفيه ما هو خاضع للتطور، كالآداب التي تنشأ عن تغير العادات والأعراف، ووسائل العبادة، والتطبيق العملي للمبادئ الأساسية في التشريع، والحاجات الاجتماعية الناشئة عن تطور الحياة والحضارة، وتنظيم الدولة والمجتمع بما يحقق مصلحة الناس.

ثم لخّص مرونة الإسلام في مقاصد التشريع، وهي : العدالة، والمصلحة، والتيسير.

ومرونة الإسلام في نصوص التشريع، وفي مصادر التشريع : (القرآن ـ

السنة ـ القياس ـ الاستحسان ـ الاستصلاح ـ العرف).

ثم تحدث عن وقائع المرونة والتطور في الفقه الإسلامي، وفي الدولة الإسلامية، ثم جاء إلى الشبهات المثارة في هذا الموضوع، ورد على كل شبهة رداً علمياً منطقياً.

٦ ـ نظام السلم والحرب في الإسلام:

تحدث في هذه المحاضرة القيمة عن مبادئ السلام في الإسلام، وعن نظام السلم الداخلي، والخارجي، ومتى تكون الحرب بتأمين السلام الداخلي، ثم لتأمين السلام العالمي، ثم تحدث عن نظام الحرب في الإسلام، وعن الأسرى والجزية التي فرضها الإسلام، لا لإذلال المغلوبين، كما هي لدى سائر الشعوب آنئذ، بل لحمايتهم في أموالهم وعقائدهم وأعراضهم وكرامتهم، وتمكينهم من التمتع بحقوقهم مع المسلمين الفاتحين سواء بسواء..

ثم تحدث عن واقع الحروب الإسلامية في التاريخ، وأنها كانت دفاعية، وتحررية، وأخلاقية، وإنسانية، متميزة من سائر الحروب لدى الشعوب الأخرى.

وقد اعتمد الأستاذ في تأييد وجهة نظره التي تعبر عن روح الشريعة، على القرآن العظيم، والسنة النبوية الشريفة، وعلى المصادر التاريخية الموثوقة.

٧ ـ أصدق الاتجاهات الفكرية في الشرق العربي:

تحدّث فيها عن (وجهتنا في الإصلاح) في الشرق العربي الذي دبت فيه الفوضى الفكرية، واستعرض أهم الاتجاهات الفكرية السائدة في المجتمع العربي، بإيجاز، ثم بيّن الأسس التي ترتكز عليها الدعوة الإسلامية الحديثة، وأن الإسلام أحدث أكبر ثورة عالمية، ورفع مستوى الجماعات، وأكبر من شأن العقل، بموقفه الصارم من الخرافات، واحترامه العلم والعلماء، ومحافظته على الصحة، وتشجيعه على ممارسة الرياضة، لتتلازم مع سلامة الأخلاق،

وتحدث عن الإسلام والجيش، وعن الإسلام وتربية الضمير الاجتماعي، والإسلام والتشريع العادل.

ثم ـ كدأبه في أكثر محاضراته وكتاباته ـ جاء بالاعتراضات الموجهة إلى الدعوة الإسلامية الحديثة، ورد عليها بأن العقلية الحديثة تأتلف مع الدين، وذكر الشرائط الخمسة التي تتطلبها العقلية الحديثة من الدين، وبين أن الإسلام قد استوفاها على أتم وجه وأكمله، من خلال حديثه عن الإسلام والفطرة، والإسلام والحضارة، والإسلام والتمتع بملذات الحياة، والإسلام والتيسير، والإسلام ورعاية مصلحة الجماعة، ثم تحدث عن أولويات الحركة الإسلامية يومئذٍ من تعميم التعليم وإصلاح مناهجه، وإصلاح القوانين، والقضاء على مظاهر الفساد، والقضاء على الظلم الاجتماعي، وإيصال العمال والفلاحين والفقراء إلى حقوقهم، والقضاء على مظاهر الضعف، ورفع مستوى المرأة، وحياطة كيان الأمة من كل فساد داخلي أو خارجي.

٨ ـ العرب قبل الإسلام (للعبرة والتاريخ):

وهي ملخص محاضرة تحدث فيها عن أبرز صفات الرسول القائد، من ثبات على الحق، وتحمل للأذى في سبيل الدعوة، وحسن معاشرة لأهله وأصحابه والناس أجمعين. ثم تحدث (للعبرة والتاريخ) عما كان يسمى (خميس المشايخ) الذي باد واندثر بفضل جهود السباعي المسلم المستنير.

## ١٠ ـ عظماؤنا في التاريخ

هو مجموعة من المقالات، كان السباعي العظيم نشرها في الصحف، تحت عدة عنوانات، منها: عظماؤنا في التاريخ، وفي مدرسة الروح.

و(في مدرسة الروح) تحدث الأستاذ عن شخصية الرسول ﷺ وأثره في أهله وصحبه وفي الحياة المعيشية، وقدم صوراً سريعة عن محمد الرسول، ومحمد الإنسان، وعن أوصافه الخَلْقية، والخُلُقية.. عن معيشته في نفسه،

وعن معيشته في بيته، وعن معاملته لأصحابه، وعن خشيته لله، ومراقبته إياه، وعن عبادته، وعن رياضته ونظافته، وعن مزاحه ومداعبته، وعن تواضعه وسماحته، وعن رحمته وشفقته، وعن مشاركته للشعب في آلامه وآماله، وعن زهده في الدنيا، وعن نفقاته وصدقاته، وعن عدله بين الناس، وشدته في الحق، وشجاعته في الحروب، وحرصه على أداء رسالته.

ثم تحدث عن الرسول الكامل في أخلاقه، وعن الرسول المعلم أستاذ الحياة.. تحدث عن كل هذا، في صورة خاطفة اجتزأ منها ما يدل على تمام الصورة وحقيقتها، واستشهد على كل ما كتب من كتب الصحاح والسنن والسير.

ثم أورد أقوال بعض المستشرقين والغربيين في الرسول الكريم ﷺ.

ثم تحدث الأستاذ عن الخلفاء الراشدين، فقدم تاريخ كل منهم في سطور، قدم اسمه ولقبه، وبيئته، وجاهليته، وصفته، ثم إسلامه، ولمحات عن أبرز ملامح خلافته، وأبرز نواحي عَظَمَته، وكانت في أبي بكر إيماناً مطلقاً، وتضحية في سبيل الله، وحزماً، وعقلاً، وتواضعاً، وعفة.

وكانت في عمر: دفاعاً عن العقيدة، وشدة في الحق، وخضوعاً للقيادة، ورحمة بالشعب، ويقظة في إدارة الدولة، وعبقرية في التشريع.

وكانت في عثمان، سخاءه العظيم في سبيل الدعوة، وإنفاقه عليها في حياة رسول الله ﷺ، وبعد وفاته، ما جعله يكاد ينفرد بذلك بين عظماء الصحابة. وهناك صبره العظيم على البلاء الذي نزل به، وفرحه العميق حين لا يرى معصية، وخوفه من الله، وحياؤه الذي تفرد به، وإيمانه الذي جعله ينظر بنور الله، وزهده في حطام الدنيا، وذوقه الرفيع.

وكانت في علي فضائل كثيرة، حتى قال الإمام أحمد: لم يُنْقَلْ لأحد من الصحابة من الفضائل ما نُقل لعلي رضي الله عنه، ومن تلك الفضائل: علمه الغزير، ورأيه السديد، وشجاعته التي غدت مضرب الأمثال، وورعه وزهده.

وكان المؤلف يقف مع كل خليفة راشد موقفاً يعلق به على ما كان منه ومن

الذين معه، ويستشهد على ما يذهب إليه بالأحاديث الصحيحة، وبالتاريخ المعتمد، وبأقوالهم هم، رضي الله عنهم.

ووقف مع عبد الله بن مسعود، وذكر صفة حامل القرآن، كابن مسعود، الذي جعل القرآن مأدبة الله، ونقل عنه فهمه لحقائق العلم، وللرجل الفارغ، وللعبادة التي هي باب الفتوح، وللإيمان الحقيقي، وللقلوب.

ثم وقف مع أبي الدرداء، رضي الله عنه، مع زهده، ونصحه، وحياته مع الناس، ومع العصاة، ومع الإخوان، ومع الأغنياء البخلاء، ومع غمار الناس، ومع نعمة الله... إلخ.

ثم تحدث عن حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، وعن سيف الله وسيف رسوله خالد بن الوليد، وعن سلطان العلماء العز بن عبد السلام، وعن أمير البيان شكيب أرسلان، وعن الإمام الشهيد حسن البنا.

## ١١ ـ الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم

مجموعة أبحاث ضمها هذا الكتاب الواقع في نحو ستين صفحة، مهَّد لها بالكلام عن تلاميذ المستشرقين، والمعجبين بهم وبدراساتهم من العرب، الذين نقلوا آراء بعض المستشرقين، ونسبوها إلى أنفسهم.

ورصد تياراً آخر مناهضاً لهذا التيار، وهو ذو اتجاه يحمل على المستشرقين واتجاهاتهم المغرضة المفرطة في التعصب، ويختتم الأستاذ السباعي هذا التمهيد برفض الغلو لدى كلا الاتجاهين، فنحن من قوم يأمرهم دينهم بالعدل حتى مع أعدائهم.

ثم تحدث عن تاريخ الاستشراق وأعاده إلى أيام مجد العرب في الأندلس، ثم تعاظم في القرن الثامن عشر، قرن استعمار الغرب للعالم الإسلامي، ونهب ثرواته ومكتباته التي سرقوا منها نوادر المخطوطات التي بلغت مئتين وخمسين ألف مجلد في أوائل القرن التاسع عشر.

وفي عام ١٨٧٣م عقد أول مؤتمر للمستشرقين في باريس، ثم تتالى عقد المؤتمرات التي تلقى فيها الدراسات عن الشرق وأديانه وحضاراته، وخاصة الإسلام وحضارته ولغته العربية وآدابها بدوافع دينية تبشيرية وأخرى استعمارية، وثالثة تجارية، ورابعة سياسية، وخامسة علمية.

وقسم السباعي أهداف المستشرقين إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ فهناك هدف علمي مشبوه، يهدف إلى التشكيك بصحة رسالة النبي ﷺ، ثم التشكيك بالإسلام، وبأنه دين من عند الله، والتشكيك بصحة الحديث النبوي، والتشكيك بقيمة الفقه الإسلامي الذاتية، وبقدرة اللغة العربية على مسايرة التطور العلمي، وتشكيك المسلمين بقيمة تراثهم الحضاري، وبث روح الشك في قيمهم وعقيدتهم ومثلهم العليا.

كما يهدف إلى إضعاف روح الإخاء الإسلامي بين المسلمين في مختلف أقطارهم، عن طريق إحياء القوميات، وإثارة الخلافات والنعرات بينهم.

ويرى السباعي المنصف، أن ثمة صنفاً قليل العدد من المستشرقين، ليس لهم سوى هدف واحد، هو البحث العلمي، ودراسة التراث العربي والإسلامي، وهؤلاء وقعوا في أخطاء علمية، واستنباطات بعيدة عن الحق، إما لجهلهم بأساليب اللغة العربية، وإما لجهلهم بالأجواء الإسلامية التاريخية، وهذا الصنف أقل المستشرقين خطراً، ومن هذا الصنف مَنْ قادتْه دراساته إلى الإعجاب بالإسلام، ثم اعتناقه، كما فعل الفنان الفرنسي (دينيه).

أما وسائل المستشرقين لتحقيق أهدافهم، فلم يتركوا وسيلة إلا استخدموها، كتأليف الكتب، وإصدار المجلات الخاصة ببحوثهم عن الإسلام والمسلمين وديارهم، وإنشاء المستشفيات والمدارس والجمعيات والملاجئ والمياتم ودور الضيافة.

ثم يتحدث السباعي عن أخطر تلك الصحف، وأخطر المستشرقين المعاصرين، وأهم كتبهم.

وفي بحثه: (موازين البحث عند المستشرقين) يقرر أن أكثر هؤلاء المستشرقين يضعون في أذهانهم فكرة معينة، ثم يتصيدون الأدلة لإثباتها، وحين يبحثون عن تلك الأدلة، لاتهمهم صحتها، بمقدار ما يهمهم إمكان الاستفادة منها، لدعم آرائهم الشخصية، وكثيراً ما يستنبطون الأمر الكلي من حادثة جزئية.

وضرب الأستاذ السباعي عدة أمثلة صارخة على هذا الذي وقعوا فيه، بتسقط بعض الروايات المتهافتة.

وتحت عنوان: (مع المستشرقين وجهاً لوجه في أوروبة) تحدث السباعي عن لقاءاته بعدد من المستشرقين هناك، أثناء رحلته العلمية إلى أوروبة عام ١٩٥٦م، وقد استغرقت ستة أشهر حافلة باللقاءات، والمحاضرات، والحوارات، وقد ازداد إيماناً واقتناعاً بخطر المستشرقين على تراثنا الإسلامي كله، تشريعياً وحضارياً، لما يملأ نفوسهم من تعصب ضد الإسلام والعرب والمسلمين.

وكان من أولئك المستشرقين الذين التقاهم في أوروبة، من كان من أركان حرب الجيش البريطاني في مصر، خلال الحرب العالمية الثانية، ومنهم القسيس بلباس مدني، ومنهم القسيس الذي عاش رئيساً للإرسالية التبشيرية في القدس قرابة عشرين عاماً، ومنهم اليهودي الذي كان يعمل في دائرة الاستخبارات البريطانية في ليبية، خلال الحرب العالمية الثانية، وكثير من هؤلاء يعملون في الدوائر الاستعمارية. وأكثرهم لا يعرفون من اللغة العربية إلا القليل، ثم هم يفتون في كبريات القضايا بأحقاد، منها الدفين، ومنها الظاهر للعيان، فتأتي دراساتهم مدخولة متحاملة مدسوسة، موجهة ضد الإسلام والمسلمين، فهم أداة هدم للإسلام، وتشويه لسمعة المسلمين.

هذا في أوروبة.

«أما في أمريكة، فالاستشراق فيها الآن، يمثل ذروة العداء للإسلام

والمسلمين، ويشرف على الدراسات الإسلامية في جامعاتها أشد أعداء الإسلام تعصباً وحقداً»[1].

والحق أن جهود الدكتور السباعي في الرد على المستشرقين أخذت حيزاً كبيراً من حياته وكتاباته، ومن شاء التوسع في هذا الميدان، فعليه بما كتبه السباعي في كتابه القيم: (السنة مكانتها في التشريع الإسلامي) والأعاصير في وجه السنة، ولينعم النظر والتفكير في كتاباته الأخرى، ورحلاته العلمية إلى الجامعات الأوروبية والسوفياتية[2].

## ١٢ ـ السيرة النبوية دروس وعبر

هذا الكتاب (١٦٥ صفحة) هو ملخَّص محاضرات ألقاها الدكتور السباعي على طلبة كلية الشريعة، أوضح فيها مظاهر الأسوة في سيرة النبي الإنسان الكامل ﷺ، وهو كتاب دعوي، كتبه للدعاة إلى الله، وكان ينظر إلى طلاب كلية الشريعة أنهم سيكونون دعاة صادقين إلى الله تعالى.

جاء الكتاب في مقدمة وستة فصول، قال في المقدمة:

١ ـ إن سيرة النبي محمد ﷺ هي أصح سيرة لنبي مرسل، أو عظيم مصلح.

٢ ـ وإن حياة النبي فيها واضحة كالشمس.

٣ ـ وإن سيرته تحكي سيرة إنسان أكرمه الله بالرسالة، ولم يخرج عن بشريته، وهي شاملة لكل نواحي الإنسانية في الإنسان.

٤ ـ وهي تعطينا الدليل على صدق نبوته.

وتحدث عن مصادر السيرة النبوية المعتمدة، وهي: القرآن الكريم،

---

(١) الشهاب: ٨.
(٢) الشهاب: ٢٧.

والسنة النبوية الصحيحة، والشعر العربي المعاصر لعهد الرسالة، وكتب السيرة.

في الفصل الأول تحدث عن حياة النبي قبل البعثة، فذكر الوقائع التاريخية، ثم استخلص منها الدروس والعبر والعظات، وهذا هو منهج الأستاذ في هذه المحاضرات التي أعاد كتابتها على شكل مذكرات موجهة للدعاة، في كل زمان ومكان، بعد أن كان أفاض فيها، وهو يقدمها محاضرات للطلبة.

وتحدث في الفصل الثاني عن سيرة النبي من البعثة حتى الهجرة إلى الحبشة فذكر الوقائع ثم الدروس المستفادة منها.

وتناول في الفصل الثالث حوادث السيرة بعد هجرة الحبشة إلى الهجرة للمدينة، وفي هذه المرحلة كان الإسراء والمعراج، وقد استخلص منها:

١ ـ ربط قضية المسجد الأقصى وفلسطين، بقضايا العالم الإسلامي، فالدفاع عن فلسطين، هو دفاع عن الإسلام نفسه، يجب أن ينهض به كل مسلم، والتفريط في الدفاع عنها، تفريط في جنب الإسلام، وجناية يعاقب الله عليها كل مسلم.

٢ ـ فيها رمز إلى سمو المسلم الذي يجب عليه أن يرتفع فوق أهواء الدنيا وشهواتها.

٣ ـ فيها إشارة إلى إمكان ارتياد الفضاء، والخروج من نطاق الجاذبية الأرضية.

وقال: «وفي فرض الصلاة ليلة الإسراء والمعراج، إشارة إلى الحكمة التي من أجلها شرعت الصلاة، فكأن الله يقول لعباده المؤمنين: إذا كان معراج رسولكم بجسمه وروحه إلى السماء معجزة، فليكن لكم في كل يوم، خمس مرات، معراج، تعرج فيه أرواحكم وقلوبكم إلي. ليكن لكم عروج روحي تحققون به الترفع عن أهوائكم وشهواتكم، وتشهدون به على عظمتي وقدرتي ووحدانيتي، ما يدفعكم إلى السيادة على الأرض، لا عن طريق الاستعباد

والقهر والغلبة، بل عن طريق الخير والسمو، عن طريق الطهر والتسامي، عن طريق الصلاة».

وبعد أن يوجز وقائع الهجرة حتى الاستقرار في المدينة، في الفصل الرابع، في إحدى عشرة فقرة، يتوقف عند الفقرة الأخيرة التي تضمنت الوثيقة التي وادع فيها اليهود، لأنها تتضمن المبادئ التي قامت عليها أول دولة في الإسلام، وكانت تسعة عشر مبدأ، استخلصها بحسه الدقيق، وذكائه الحصيف، وعلمه العميق، ونظراته الثاقبة، وتفكيره الحر الذي استنبط تلك المبادئ الرائعة، من تلك الوثيقة الدقيقة الشاملة.

ويستخلص السباعي الدروس المستفادة من تلك الحوادث، ومنها: حاجة الدعوة إلى النساء، لأن المرأة إذا آمنت بشيء، لم تبال في نشره، والدعوة إليه، مستهينة بكل صعوبة، وتعمل على إقناع زوجها وأولادها به، وهذا يعني أن الحركة الإسلامية ستظل وئيدة الخطا، ضعيفة الأثر في المجتمع، حتى تشترك فيها المرأة، فتنشئ جيلاً من الفتيات على الإيمان، والعفة، والطهارة.. يجب أن نعمل على أن تحمل الفتيات والزوجات لواء الحركة الإسلامية في أوساط النساء، وهن أكثر من نصف الأمة.

ومن تلك الدروس، أن اليهود هم هم في كل زمان ومكان، يتملقون وينافقون في المجتمع الذي فقدوا السيطرة عليه، ويأكل قلوبهم حقد أسود على من يسلبهم زعامتهم على الشعوب، ويحول بينهم وبين سلب أموالها باسم القروض، وسفك دمائها باسم النصح والمشورة، وينتهون من الحقد إلى الدس والمؤامرات، ثم إلى الاغتيال إن استطاعوا.

وتحدث في الفصل الخامس عن بعض المعارك الحربية التي خاضها الرسول القائد ﷺ. تحدث عن إحدى عشرة غزوة وسرية من أصل ست وعشرين غزوة، وثمان وثلاثين سرية، هي مجموع معاركه الحربية. تحدث عن غزوة بدر، وأحد، وغزوة بني النضير، والأحزاب، وبني قريظة، والحديبية، وخيبر، ومؤتة، والفتح، وحنين، وتبوك.

وقدم لحديثه عن الدروس والعظات، بالحديث عن مشروعية القتال في الإسلام، وأسبابه، وقواعده العامة، وأهدافه السلمية، وأن الله شرع القتال للمؤمنين في السنة الثانية للهجرة، وكانت العلة في الإذن لهم بالقتال، وقوع الاضطهاد عليهم من قبل، فهو كان بمثابة رد العدوان عنهم، ومعاملة المثل بالمثل، ولم يكن لاستعمار الشعوب وأكل خيراتها، وانتهاب ثرواتها وإذلال كرامتها، وإنما هو لصالح الإنسانية، وفائدة المجتمعات البشرية.

وتحدث في الفصل السادس عن أهم الحوادث التي وقعت بعد فتح مكة، إلى وفاته - ﷺ - وهي: غزوة حنين، وتحطيم الأصنام، وغزوة تبوك، وحجة الوداع، وجيش أسامة بن زيد، ثم لحوق النبي الكريم بالرفيق الأعلى.

ولكن المرض الشديد حال دون ما كان يريده السباعي، فلم يقو على ذكر الحوادث، وأحال قارئه إلى سيرة ابن هشام، واكتفى بذكر الدروس المستفادة من تلك الحوادث.

لقد قدم السباعي الداعية في هذه المذكرات كثيراً مما يحتاج إليه الداعية في حياته الدعوية، ونستطيع أن نطالع ملامح من حياة السباعي الداعية البصير، ونظراته العميقة في استنباطاته التي بزَّ بها كل من كتب في فقه السيرة، مع أنها لم تستوف، وكانت خلاصات لمحاضراته المستفيضة في السيرة.

## ١٣ - شرح قانون الأحوال الشخصية

جاء هذا الكتاب في مجلدين، كان الأول في ٣٣٦صفحة، والثاني في (٣١٢)صفحة، في طبعته السابعة عام ١٩٩٧م شرح فيه مؤلفه قانون الأحوال الشخصية المعمول به في الجمهورية العربية السورية إلى تاريخ تأليفه عام ١٩٦٢م في ثلاثة أجزاء.

يتألف الجزء الأول من ثلاثة كتب:

موضوع الكتاب الأول: في الزواج وآثاره، وجاء في أربعة أبواب،

تحدث فيها عن الزواج والخطبة، والرضا والعلانية، والأهلية في الزواج، والولاية في الزواج، والكفاءة، والمحارم من النساء، والمعاملات الإدارية للزواج، وأنواع الزواج، وأحكامها، والمهر، والمسكن، والنفقة.

وبيَّن المؤلف المراد من الأحوال الشخصية بقوله: هي «الأوضاع التي بين الإنسان وأسرته، وما يترتب على هذه الأوضاع من آثار حقوقية، والتزامات أدبية ومادية» وتنحصر في ثلاثة أقسام رئيسة هي:

١ ـ أحكام الزواج وما يترتب عليه من مهر، ونفقة، ونسب، ورضاع، وطلاق، وعدة، وسواها.

٢ ـ أحكام الأهلية، والحجر، والوصاية، والوصية.

٣ ـ أحكام الإرث (الفرائض).

ثم تحدث عن تطور تقنين الأحوال الشخصية، بدءاً بالقاضي أبي يوسف، ومروراً بالقضاء في الأندلس، والدولة الفاطمية، والدولة الأيوبية، والدولة العثمانية، وقانون العائلة، إلى العصر الحاضر، وما حدث لها من تطور في التقنين في عدد من البلدان العربية.

وقد استمد قانون الأحوال الشخصية السوري أكثر أحكامه من الفقه الحنفي، وبعضها الآخر من المذاهب الأخرى، ومن آراء بعض العلماء من غير المذاهب الأربعة.

مهَّد المؤلف للباب الأول (في الزواج والخطبة) من الكتاب الأول فقال:

«وضع الإسلام نظاماً محكماً للزواج، يقوم على أقوى المبادئ، وأضمنها لسعادة الأسرة، واستتباب السلام، وانتشار الفضيلة في المجتمع، فجعل الباعث على الزواج، إمداد المجتمع بنسل صالح، وإسعاد الأسرة، وحث على اختيار كلٍّ من الزوجين للآخر اختياراً سليماً قائماً على الدين والأخلاق، وقرر مساواة الزوجين في الحقوق، إلا في رئاسة الأسرة، فهي للرجل، وأن يتعامل الزوجان بسعة الصدر، وحُسن الظن، وجميل الأخلاق، ونظّم العلاقة بين الأبوين والأولاد.

وتحدث في الباب الثاني(أركان العقد وشرائطه) عن الرضا والعلانية، وعن الإيجاب والقبول، وعرّج على زواج المتعة، وأكد تحريمه.

وهكذا تتتابع فصول هذا الباب، فتتحدث بالتفصيل عن الوكالة، والولاية، والكفاءة، والمحارم من النساء حرمة تأبيد من ناحية القرابة، ثم من ناحية المصاهرة، وعن حرمة الرضاع، ثم ذكر المحرمات المؤقتة، والحكمة من تعدد الزوجات، والحالات الشخصية والاجتماعية التي تبيح التعدد.

وفي الباب الثالث بسط القول في أنواع الزواج، وأحكام كل نوع، وتحدث عن الحكمة في منع زواج المسلمة من غير المسلم، وبيّن الفرق بينه وبين زواج المسلم من الكتابية، وناقش الشبهات.

وفي الباب الرابع تحدث عن المهر، وعن أحكام الخلوة، والمسكن، والنفقة.

وفي الكتاب الثاني (انحلال الزواج) تحدث عن طرق انحلال الزواج: تحدث عن الطلاق وأحكامه، وعن مسوغاته وحكمته، وموقف اليهودية والنصرانية منه، ثم بسط موقف الإسلام من الطلاق. كما تحدث عن المخالعة، والتفريق عن طريق القضاء، وعن العدة بأنواعها.

وفي الكتاب الثالث، تناول الحديث عن الولادة ونتائجها، وعن أحكام النسب، والحضانة والرضاع، ونفقة الأولاد، والأقارب، في حدود ما تعرض له قانون الأحوال الشخصية، وأنهى المؤلف الجزء الأول من هذا الكتاب الموسوعي ببحثين لم يتعرض لهما القانون، وهما: الإيلاء، والظهار.

واحتوى المجلد الثاني على الجزءين: الثاني: (أحكام الأهلية والوصية) والثالث: (أحكام المواريث). تحدث في الجزء الثاني عن الأهلية وعوارضها، وأقسامها، وعن الحجر وأسبابه، والأحكام القانونية في الأهلية والحجر، ثم تحدث عن الولاية وأقسامها، وشروطها، وصلاحية الأولياء، والأحكام القانونية ذات الصلة بالأولياء، والمواد التي نصت على تلك الأحكام.

ثم تحدث عن الوصاية والأوصياء، فعرف الوصي، وذكر شروط الأوصياء وأقسامهم، وصلاحياتهم، وواجباتهم، والعقوبات التي تترتب عليهم في حال الإخلال بتلك الواجبات.

وتحدث عن الوصية، فعرفها لغة واصطلاحاً، ثم تحدث عن مشروعيتها وأقسامها، وعن شرائط الموصي، وشرائط الموصى له، والوصية لأعمال الخير وحكم وصايا غير المسلمين، ثم شرائط الموصى به، وبطلان الوصية، والرجوع عنها، وعن جحودها، بأن ينكرها الموصي، ثم عن أحكامها. والآثار المترتبة على التصرف الشرعي، فتحدث عن الموصى له، وعن الوصية للمعدوم، وعن الوصية بالأعيان للمعدوم ممن يحصون، والوصية لمن لا يحصون، والوصية لقوم محصورين، والوصية المشتركة.. وهكذا إلى آخر ما هنالك مما له صلة بالوصية.

وخصص المؤلف ـ رحمه الله ـ الجزء الثالث لأحكام المواريث، فتحدث عن مشروعية الإرث، وأدلتها، وناقش المعترضين عليها، وأبدى تسع ملاحظات مهمة، كالموقف الوسط الذي يقفه الإسلام بين الشيوعية من جهة وبين الرأسمالية والمذاهب التي تقول بالحرية الشخصية في التملك، من جهة أخرى، وأن الإرث إجباري في الإسلام بالنسبة إلى الوارث والمورث، وأن الإسلام جعل الميراث في دائرة الأسرة، وأنه جعل للمرأة نصيباً منه، وأنه جعل الحاجة أساس التفاضل في الميراث.

وتكلم عن مكانة علم المواريث (الفرائض) في الشريعة، وعناية الفقهاء به، وعن أصول هذا العلم في القرآن والسنة، ثم تحدث عن أركان الإرث، وأسبابه، وشروطه، وموانعه، وعن الحقوق المتعلقة بالتركة، ودرجات الاستحقاق، ثم عن الفروض ومستحقيها من الرجال والنساء.

وتحدث عن الإرث عن طريق التعصيب، وتحدث عن الحجب وأقسامه، وعن أصول المسائل وتصحيحها، وعن العول ومشروعيته، وعن الإرث بحق الرحم، والأحوال الشخصية للطوائف الأخرى، مثل الدروز، واليهود، والنصارى.

## ١٤ ـ هكذا علمتني الحياة

يتألف هذا الكتاب من جزءين، الأول منهما كان خواطر اجتماعية، وجاء في ٢٢٢ صفحة، والثاني خواطر أقرب إلى السياسة، أو هي مزيج اجتماعي سياسي، ويتألف من ٩٢ صفحة. يقول المؤلف رحمه الله:

«هذه خطرات بدأت تسجيلها وأنا في مستشفى المواساة بدمشق، في شهر ذي القعدة من عام ١٣٨١هـ نيسان ١٩٦٢م.. حين رأيتني في عزلة عن الأهل والولد، والتدريس والتأليف، وتلك هي عادتي في السجون والأمراض والأسفار».

وأرادها «أن تكون صورة صادقة عن تفكيري خلال بضعة شهور، قضيتُها منقطعاً عن الناس، ما بين المستشفى والبيت».

«وكنت فيها منساقاً مع طبيعتي التي تحبُّ البساطة في كل شيء وتكره التعقيد في أي شيء».

ويقول عن هذه الخطرات التي سما فيها وحلَّق مرة، وغاص في لجج الحياة الاجتماعية والسياسية مرة ومرة:

«إنني لست في هذه الخواطر فيلسوفاً، ولا حكيماً، ولا مفكراً بعيد الغور في الوصول إلى الحقائق، ولكنني صاحب تجارب عملية في الحياة، استغرقت من عمري أكثر من ربع قرن، وقد أحببت نقلها إلى من ينتفعون بما نكتب.. وإنما يهمني أن أبدو لهم أخاً مرشداً ناصحاً يقول ما يفهمون، ولا يعنتهم في تدبر ما يقرؤون».

«وأحب أن أنبه أيضاً، إلى أني ـ فيما أوردت من خواطر تتناول فئات من الناس ـ لم أقصد أشخاصاً معينين، وإنما قصدت كل من اتصف بتلك الصفات، فالخواطر المتعلقة بهم، خواطر نحو صفات معينة، لا أشخاص معينين، وأعوذ بالله من أن يكون في قلبي حقد نحو أحد، أو عندي رغبة في التشهير بإنسان، مهما اختلفت معه في اتجاهه وسلوكه.

«إن من بلغ من العمر ما بلغت (٤٧ سنة) وأصابه من المرض ما أصابني (خمس سنين وبضعة أشهر) وعرف الناس معرفتي بهم، يرى نفسه أكرم من أن يحمل حقداً، أو عداوة شخصية يجري وراءها متقطع الأنفاس.

«لقد هانت علي الدنيا بما فيها من اللذائذ، وما تحتوي من عوامل الحسد والحقد والكراهية، ولم يبق في نفسي ـ شهد الله ـ إلا رغبة في الخير، أفعله وأدل عليه، وإعراض عن الشر، أهجره وأحذر منه، أما الأشخاص، فنحن كلنا زائلون، ولن يبقى إلا ما ابتغي به وجه الله، أو قصد منه نفع الناس، وسيجزي الله كل إنسان على ما قدم من عمل».

هذا وقد ضم الجزء السياسي من الكتاب، عدة مقالات كان كتبها افتتاحيات لجريدة المنار التي أنشأها عام ١٩٤٦م، ومن هذه الافتتاحيات: (الحكم الصالح) كتبها في العدد (١٧٦) و(بين الحكومة والشعب) كتبها في العدد (١١٢)، و(مسؤولية القادة) كتبها في العدد (٣٩١)، و(يا شيوخنا في السياسة: لقد آذانا ضعفكم، فاتركونا نسير) كتبها في العدد (١٦٨)، و(هذه الأمة لن تقبل بعد اليوم أنصاف آلهة) كتبها في العدد (١٦١)، و(بأي سلاح نحارب) كتبها في العدد (١٧٤).

وكان ختام الكتاب محاضرة قيّمة بعنوان: (لماذا أخفقت الجامعة العربية؟ وكيف تصبح أداة نافعة للعرب؟) ألقاها في احتفال الهيئة الوطنية في لبنان، بمناسبة الذكرى الثامنة لقيام جامعة الدول العربية، في الخامس من رجب ١٣٧٢م ـ الحادي والعشرين من آذار ١٩٥٣م، وقد حضر الحفلة رئيس المجلس النيابي، ورئيس مجلس الوزراء، والوزراء، والنواب، والعلماء، وفريق كبير من وجهاء العاصمة وشبانها وسيداتها، وكان لهذه الكلمة صدى عظيم في أوساط العاصمة بيروت، لما اتسمت به من الصراحة والجرأة في الحديث عن أخطاء الجامعة، وأسباب فشلها.

تحدث المحاضر عن فكرة الجامعة، وخطتها، وأعاد سبب فشلها إلى

عاملين رئيسين، هما: أنها أولاً لم تنشأ بإرادة من الرؤساء دفعتهم إلى تحقيق آمال شعوبهم في الوحدة والاجتماع، وثانياً بسبب العقليات المتخلفة التي توجهها، والتي تعمل في دائرة المطامع الشخصية، وتزدري إمكانيات العرب وقواهم، وتضلل الجماهير وتخدعهم بأكاذيب البيانات، وبلاغة الخطب والتصريحات، وعدم مراعاة المصالح العربية، وجمود رؤساء الجامعة في وجه التطور، ومن هنا اعتبر هزيمة العرب في معركة فلسطين، هي هزيمة الرؤساء وحدهم، ومع ذلك، تبقى الجامعة محط آمال العرب، ورمزاً لآمالنا البعيدة، على أن تراعى مصالح الجماهير قبل مصالح العروش، وعلى أن ينظر إلى الأمة على أنها ذات قيمة عظيمة، في عالم الفكر، والحضارة، والسياسة، والاقتصاد، والحرب، والسلم، وعلى أن يعنى بالروح، والأخلاق.

وشجب المحاضر الروح الطائفية، ودعا إلى التآخي والتعاون والوئام، ثم أهاب برؤساء الجامعة أن لا يحولوا بيننا وبين الحرية والحياة السعيدة، لنشعر بكرامتنا في أنفسنا، قبل أن نطلب كرامتنا في نفوس أعدائنا، وأن لا يبيعونا في سوق المصالح، وأن يستفيدوا من قوانا الروحية، «وخير لهم أن يرأسوا مجتمعاً يزخر بالفضائل، من أن يكونوا على رأس أمة انطفأت فيها شعلة الحياة الكريمة، لأنها فقدت في قلوبها إشراقة الروح المؤمنة».

وختاماً.. أحب أن أنقل بعض ما كتبه الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي عن الكتاب، في كتابه القيم: (شخصيات استوقفتني) فهو خير من كتب عن هذا الكتاب.

قال الدكتور البوطي:

إنه «صورة لجمال خاشع، يسبح في مزيج من الإشراق الإلهي العظيم، والسعادة الروحية الصادقة، والحكمة البديعة الصائبة، والذوق القلبي الذي يكرم الله به عباده العارفين»[1].

---

(١) شخصيات استوقفتني، ص١٩٧.

وقال:

إنه في هذا الكتاب: «ذواق يسير في طريق العارفين»[١].

وقال:

«إنه يعبر عن عمق في الإحساس، وصفاء في النفس، ورقة في القلب، وثورة في العزم، وحزم في الإرادة»[٢].

«إنه ظمأ الروح إلى مناجاة خالقها، والانتهال من معين حبه، والتبتل لعظمته وحكمته وجلاله»[٣].

«ولقد وجدت فيه من دلائل الإخلاص، والصدق في الإحساس، ما هز فؤادي هزاً، وجعلني أعيش في تلك الأحاسيس»[٤].

وكذلك نحن، وكل من قرأ هذا الكتاب البديع في بابه.

### ١٥ ـ القلائد من فرائد الفوائد

كتاب لطيف في بابه، يتألف من ١٦٨ صفحة من القطع العادي، كانت طبعته الأولى عام ١٩٦٢م جمع فيه من فرائد الحكم، وفوائد العلم، وطرائف الأدب، ما كان تناثر في العديد من المراجع والمصادر العربية، وما بقي في حوزته، بعد أن ضاع الكثير من القصاصات التي استخلصها، بسبب الأسفار والاعتقالات والمرض. ووعد بإصدار جزء ثان من هذه القلائد، ولكن المرض والأجل حالا دون ذلك.

وقد هدف المؤلف من نشر هذه السلسلة الفكرية من الفوائد الثقافية:

---

(١) المرجع السابق نفسه.
(٢) المرجع السابق، ص١٩٨.
(٣) المرجع السابق نفسه.
(٤) المرجع السابق، ص١٩٩.

١ ـ تزويد الشباب المسلم بثقافة إسلامية شاملة تجعل منه مشاركاً للمختصين في الدراسات الإسلامية، بالمعلومات الضرورية منها.

٢ ـ إطلاع الشباب المسلم على روائع الخُلق الإسلامي الأصيل.

٣ ـ التوجيه الروحي النبيل من معدنه الصافي.

٤ ـ تقوية الشباب المسلم في لغته العربية مادة وأسلوباً.

لقد جمع المؤلف في هذا الكتاب ما لذ وطاب من الذخيرة التي تعين الكاتب، والباحث، والأديب، والداعية، كلاًّ في مجال اختصاصه، في لينة ويسر.

## ١٦ ـ دروس في دعوة الإخوان المسلمين

صدر هذا الكتاب عن قسم الطلاب في جماعة الإخوان المسلمين في سورية عام١٩٥٥م وكان السباعي قد كتب مقدمته، وبعض فصوله، وشارك غيره في كتابة فصول أخرى فيه. قال في المقدمة:

«نشأت دعوة الإخوان المسلمين في سورية منذ بضعة عشر عاماً، وتطورت حتى بلغت ما بلغت إليه اليوم من سعة وقوة، وحتى غدت محط آمال المسلمين في الدفاع عن دينهم وتحرير مجتمعهم من الفساد والانحطاط، وتحرير وطنهم من الضعف والاستعمار، وهذه الدعوة التي برزت على الناس، في سورية ومصر وبلاد العرب والإسلام منذ ربع قرن تقريباً، وما تزال شغلهم في الحديث عنها حتى اليوم، جديرة بأن يزاح عنها ستار الأضاليل التي أقامها أعداء الإسلام حولها، فلقد زعموا أنها دعوة رجعية تريد أن ترجع بالمسلمين إلى الوراء عشرة قرون أو تزيد، وزعموا أنها دعوة طائفية تثير النعرات الطائفية بين أبناء الوطن الواحد، وزعموا أنها دعوة استغلالية تقصد استغلال السذج في عواطفهم الدينية البريئة. وهكذا ذهبوا في الزعم طرائق قدداً، والله يعلم أنها بريئة من كل ما اتهموها به، وقد أثبت تاريخها الحافل بجلائل الأعمال أنها فوق مستوى

الشبهات في أهدافها ووسائلها، وأنها أصدق حركة إسلامية في العصر الحديث، كان لها من التأثير في المجتمع الإسلامي ما لم يكن لحركة ما في التاريخ الإسلامي كله، وعلى قدر نجاحها في إيقاظ المسلمين، وإظهار عظمة الإسلام، ومقاومة الضلال والفساد والطغيان والاستعمار، كانت وستكون أكاذيب أعداء الإسلام نحوها، وعملهم على محاربتها بكل وسيلة ممكنة، وليس في هذه المحن التي تترادف على الدعوة في مصر وغيرها إلا دليل واضح على تربص أعداء الله وأعداء الإسلام بالدعوة ورجالها، والغلبة للحق مهما جال الباطل وصال، ولله الأمر من قبل ومن بعد، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

ولعل في هذا الكتاب الذي نقدمه اليوم لشباب الإخوان، ما يكشف عن بعض آراء الدعوة واتجاهاتها العلمية، فلقد روعي فيه مستوى التعليم الثانوي وإمكان استيعاب الطلاب له، وهو ليس إلا محاولة من محاولات متلاحقة مازالت تقوم بها دعوة الإخوان لتوجيه الشباب وجهة علمية إسلامية مقبولة، ولإعطائهم أبسط الحلول لأهم المشاكل التي تملأ ذهن الشباب المسلم وتصدمه في حياته الفكرية والعلمية.

وإني لعلى ثقة من أن شباب الإخوان سيجدون في هذا البرنامج التوجيهي ما يفتح أمامهم آفاق التفكير العلمي الصحيح، والفهم الصادق الدقيق للإسلام وتشريعه، ويوم يفهم المسلم دينه فهماً علمياً صحيحاً، بعيداً عن الأضاليل والخرافات، تزول أول عقبة في طريق دولة الإسلام، وهي لا بد آتية ـ بحول الله ـ يوم يفهم جمهور المسلمين ما في تراثهم الإسلامي العظيم من غناء وقوة وسعادة وتنظيم دقيق لشؤون الفرد والأسرة والمجتمع والدولة».

وتحت عنوان (الإخوان المسلمون) بيّن فكرة الجماعة قائلاً:

تقوم فكرة الجماعة على وجوب التحرر من آثار الجهالة والفوضى والضعف في حياة أمتنا، حتى تساهم من جديد في بناء الحضارة بما يعود على الإنسانية بالخير والسلام، لأن الإخوان يعتقدون اعتقاداً جازماً أن في الإسلام كل عناصر النهضة المرجوة، وأنه جاء بمنهج شامل للإصلاح هو الذي قذف بأمتنا في

الماضي إلى ميادين الخلود، وبوأها قيادة ركب الإنسانية بضعة قرون، وهو، بما فيه من خصائص المرونة والتطور قادر على أن يحمل أمتنا من جديد إلى ميادين الخلود مرة أخرى، وأن يبوئها مكانة جديرة بقيادتها لركب الإنسانية، وتوجيه حضارتها نحو الأمن والرفاهية والاستقرار. وعلى هذا تستهدف دعوة الإخوان خمسة أمور رئيسة:

**أولاً ـ إصلاح الفرد**: إذ هو النواة الأولى للمجتمع، ففي إصلاحه صلاح الأسرة وصلاح الأمة، وصلاحه إنما يتم ـ على الوجه الأكمل ـ بتطهير عقيدته من الفساد، وقلبه من الزيغ، ونفسه من الشهوة، وخلقه من الضعف، وروحه من العزلة، حتى يكون في المجتمع بناء يعمل بروح الأبرار، ويكافح بعزيمة المناضلين، ويفكر بعقل العلماء والحكماء.

**ثانياً ـ إصلاح الأسرة**: إذ هي الخلية الأساسية في المجتمع، واستقامة شؤونها وتماسك بنيانها هو وحده السبيل إلى تماسك بنيان المجتمع، واستقامة شؤونه، وإنما يتم ذلك بتربية المرأة وتعليمها تعليماً يهيئها لتنهض برسالتها في المجتمع كزوجة عفيفة مخلصة، توفر لزوجها وأطفالها الراحة والسعادة، وكأم مربية فاضلة، تمد الأمة بأكرم نشء وأقومه أخلاقاً، وأصلبه عوداً.

**ثالثاً ـ إصلاح المجتمع**: بإقامة نظم عادلة بين الأفراد والجماعات على أساس التوازن بين الحقوق والواجبات، والإسلام يتشدد في بناء المجتمع على الأسس التالية:

١ ـ التحرر من الجهل والخوف والرذيلة والجوع والمرض والمهانة.

٢ ـ النظام المحكم الذي يجمع بين القوة والرحمة، والعدالة والتسامح، وينتفي فيه طغيان الفرد وميوعة الجماعة، ويحفظ فيه حق الفرد وحق الجماعة، فإذا تعارضا كان حق الجماعة أرجح، ورعاية مصلحتها أوجب.

٣ ـ القوة التي تحفظ الأمة في داخل المجتمع، وتصد العدوان عن حدوده وسيادته، وتحارب الظلم والطغيان أينما كان، وتمد يد الإنقاذ لكل مضطهد مظلوم.

**رابعاً ـ كفاح الاستعمار** : هذا الاستعمار الذي يجثم فوق صدور العرب والمسلمين، فيشلّ حركتهم، ويقتل كرامتهم، ويستلب ثرواتهم، ويحول بينهم وبين أداء رسالتهم الإنسانية في الحياة.

والإخوان المسلمون لا يرون لكفاح الاستعمار حداً يقفون عنده، حتى تتحرر أمتهم من كل آثاره العسكرية والسياسية والاقتصادية والفكرية. ويرى الإخوان أن كفاح أعوان المستعمرين من طغاة ومستبدين ومستثمرين، هو كفاح للاستعمار، إنهم لا يهادنون فيه أحداً، فمن استبد بشؤونهم وامتص دماءهم، ونعم بالترف والرفاهية على أشلائهم وشقائهم وجهالتهم، كان ظالماً باغياً يجب كفاحه حتى يفيء إلى أمر الله، وينزل عند إرادة الشعب، ويطهر يده من دمائه وأمواله وأعراضه.

**خامساً ـ توحيد العرب والمسلمين** : هذا الوطن العربي الكبير هو واحد في جغرافيته ولغته وعقائده وأخلاقه وتاريخه وخصائصه فيجب أن يكون كذلك في واقعه السياسي.

وهذا العالم الإسلامي الذي يضم ما يزيد على خمس مئة مليون من الناس، ويحتل أخصب الأرض وأهمها في كل من آسية وأفريقية، يشكل وحدة عقائدية لامثيل لها في الكيانات السياسية القائمة على وحدة العقيدة في عصرنا الحديث، وهو يشكل قوة سياسية هائلة تستطيع أن تكون مركز الثقل في الصراع السياسي العنيف بين الشرق والغرب.. وهو في حد ذاته قوة كبرى للأمة العربية يمنحها نفوذاً سياسياً واقتصادياً وفكرياً فيه كل الربح لها، وليس فيه أي ضرر بمصالحها وكيانها الخاص بها.

ومن أجل ذلك يؤمن الإخوان المسلمون بوجوب تكتل العالم الإسلامي في اتحاد سياسي واقتصادي كالاتحاد السوفياتي أو الأمريكي، وفي ظل هذا الاتحاد يستطيع العرب وكل شعب من شعوب العالم الإسلامي أن يعملوا لبلادهم ولكياناتهم الخاصة في إطار من التعاون العملي الذي يجعل منهم أمة

مرهوبة الجانب محترمة الكيان، تؤدي دوراً خطيراً في صيانة السلام في العالم، وتوفير الرغد والأمن لشعوبه.

إن تعاون العرب مع العالم الإسلامي لا يضيرهم، بل يجعلهم في مكان القيادة لهذا العالم الفسيح، وهي قيادة لا يستهين بها إلا من جهل قدر نفسه وأمته وناءت كواهله بحمل أعباء المجد ودفع ثمن الخلود.

والجماعة تعتمد في الوصول إلى أهدافها على عنصرين:

١ ـ عنصر الأخلاق: وهو عنصر لابد منه لكل حركة إصلاحية ولكل نهضة عامة، ونعتقد أن أحداً لا ينازعنا في خطورة هذا العنصر وضرورة الاستعانة به في نهضتنا الحاضرة.

٢ ـ عنصر الدين: وهو عنصر لانعتقد أن نهضتنا تنجح بدونه، وأن مبادئنا وأهدافنا الإصلاحية تنجح بدونه.. وفي حقول التجربة التي مرت بنا خلال نصف قرن ما يؤكد لنا صدق هذا الاتجاه.

فالإسلام في عقائده: علمي يتبع أصدق الوسائل في الوصول إليها.

وفي أخلاقه: مثالي واقعي يدعو إلى الأخلاق الكريمة التي تنسجم مع غرائز الإنسان، ومع الحياة الكريمة التي يحتاج إليها.

وفي تشريعه: مدني علماني، يضع القوانين للناس على أساس من مصلحتهم وكرامتهم وسعادتهم، لافرق عنده بين أديانهم ولغاتهم وعناصرهم، ويعمل على إيجاد التوازن بينهم كأفراد وجماعات يعيشون في الوطن الواحد، وكدول يجاور بعضها بعضاً، ويجب أن نعيش في جو من التعاون على خير الإنسانية وسعادتها، وبذلك اعترف مؤتمر القانون المقارن الذي عقد في لاهاي عام ١٩٣٦م، كما اعترفت بذلك هيئة الأمم حين جعلت التشريع الإسلامي مرجعاً من مراجع القانون لمحكمة العدل الدولية، وكما أقر ذلك دستورنا السوري في الفقرة الأولى من مادته الثالثة: الفقه الإسلامي هو المصدر الرئيسي للتشريع.

أما العلاقة بين الإسلام وبين العرب فيجب أن لا نسمح للأوهام وللحقد وللتعصب أن تسيطر على تفكيرنا وحكمنا في هذا الموضوع.

إن الأمة العربية متدينة بفطرتها، لم تعش في فترة من فترات تاريخها بغير دين، وللدين سلطان عميق على أفرادها في تصرفاتهم واتجاهاتهم الخاصة والعامة. أما الخوف من أن تؤدي الدعوة للدين إلى عداء بين الطوائف، فهذا منشؤه الجهل بأدياننا وبتاريخنا، فأدياننا كلها في قرآنها وإنجيلها تأمر بالحب وتدعو إلى التعاون، وأمتنا لم ينشأ فيها العداء الطائفي لتمسكها بأديانها، بل لابتعادها عنها.

وأما أن تؤدي دعوتنا للإسلام إلى طغيان طائفي، فهذا أيضاً منشؤه الجهل بالإسلام، والغفلة عن أسباب الطائفية وعواملها في تاريخنا.

إن الإسلام دين عدالة، ولقد شهد له المنصفون من غير المسلمين بأنه يوم كان يحكم، وكان الذي يمثله رجالاً يفهمونه ويفهمون روحه السمحة كعمر بن الخطاب، كان من أبر الأديان بمبدأ العدل والحق، ومن أوسعها صدراً بعقائد المخالفين له.. وإن فتوحاته الأولى ما تزال في التاريخ مثلاً خالداً في التسامح الديني الكريم.

وأخيراً فليست دعوة الإخوان المسلمين دعوة حزبية ضيقة، تقف عند حدود سورية ولبنان فقط، بل هي حركة عالمية تمتد في مصر والسودان وشمالي أفريقية وفلسطين وشرق الأردن والعراق وسورية ولبنان والحجاز وباكستان وإندونيسية، وأكثر مناطق الشرق العربي والإسلامي، نهضة عالمية تمثل حركة البعث الجديد في شباب العروبة والإسلام، بعثاً قوياً يعتمد على أقوى الدعائم التي أحدثت كبرى الانقلابات الإصلاحية في العالم القديم والحديث، وهي واضحة في أسسها، واضحة في أهدافها ووسائلها، لا تضمر عداء لغير العرب والمسلمين ولكنها تحمل العزة والكرامة والقوة للعرب والمسلمين.

وبعد فنحن الإخوان المسلمين:

لسنا جمعية خيرية تنحصر مهمتها في جمع الأموال لإغاثة الفقراء والمنكوبين من المحسنين والأغنياء.

ولسنا جمعية وعظية تنحصر مهمتها في وعظ الناس بالخطب والمقالات والنشرات.

ولسنا حزباً سياسياً تنحصر مهمته في جمع الناس حوله ليصل أعضاؤه إلى الحكم، فيحققوا منهجهم السياسي المحدود.

ولسنا جماعة مادية تنحصر مهمتها في نطاق المشاريع الاقتصادية لفائدة أعضائها المنتمين إليها.

ولسنا هيئة إقليمية تنحصر مهمتها في نطاق محلي أو إقليمي أو قومي ضيق.. إنما نحن:

دعاة انقلاب إصلاحي فكري وعملي شامل يشمل الفرد والأسرة والمجتمع والعالم بأسره.

دعاة رسالة شاملة، لا ينحصر نفعها بأمتنا فحسب، ولا في ناحية من نواحي الحياة دون أخرى.. وإنما تشمل الناس جميعاً، وتنظم نواحي الحياة جميعاً.. دعاة عصبية للفضيلة والخير والحق والعزة، لا دعاة تعصب للشر والجهل والفتنة.

دعاة دين ولسنا دعاة طائفية (والدين إخاء والطائفية عداء).

أنصار سلم لمن أراد بأمتنا وبلادنا سلماً وخيراً وكرامة.. وجنود كفاح لمن أراد لنا الإفناء، ولأوطاننا الاستعمار، ولشريعتنا التهديم، ولجماهيرنا الإفقار والإذلال.

دعاة إصلاح اجتماعي في أمتنا، يقوم على نشر العلم وتحقيق العدالة، ومحاربة المظالم، وإقصاء الفوضى، ومكافحة الفساد في مختلف صوره وأشكاله.

دعاة عزة لأمتنا وتعاون مع غيرنا .

دعاة استقلال في بلادنا وثروتنا ومقدراتنا ، حتى تكون أرضنا لنا لا ينازعنا في شبر واحد منها منازع .

نحن نريد أن نوجه أمتنا توجيهاً قوياً ، يجعلها مع ركب العالم المتمدن لا ذليلة ولا حقيرة ولا منقادة ، بل كريمة قوية تحكم نفسها ، وتعتز بشخصيتها ، وتساهم بعبقرية أبنائها في إقامة صرح السلام .

وفي البحث الثالث (دعوة الإخوان المسلمين : ضرورة من ضرورات المجتمع القوي الكريم) قال :

إن الحاجة إلى دعوة من الدعوات تتوقف على خصائص الدعوة ، وطبيعة المجتمع الذي تقوم فيه تلك الدعوة ، والأوضاع الاجتماعية والسياسية والأخلاقية التي يكون عليها المجتمع . . ولا ريب في أن كل باحث في طبيعة مجتمعنا العربي والإسلامي ، وفي الأوضاع التي تسوده ، وفي خصائص دعوة الإخوان المسلمين وأهدافها ، يجزم بأن قيام هذه الدعوة في مجتمعنا الحاضر أمر محتم لا مفر منه ، ولا بد منه لإصلاح أوضاعنا القائمة .

**خصائص دعوة الإخوان :** إن أبرز ما في خصائص دعوةالإخوان ثلاثة أشياء :

أولاً ـ أنها ذاتية : أي هي منبثقة من طبيعة النفس العربية المسلمة ، منسجمة معها ، مستوحاة من عقيدتها وإيمانها . . دعوة ذاتية ليست غريبة عنه ، ولا مجلوبة من خارجه ، ولا ملفقة من دعوات متعددة كما هو شأن الدعوات الاجتماعية والسياسية التي نشاهدها اليوم .

ثانياً ـ أنها تقدمية : أي هي دعوة إصلاحية متمشية مع ضرورات الحياة وتطور الفكر الإنساني والحضارة الإنسانية الكريمة . إن دعوة الإخوان هي دعوة الإسلام ولم تستطع دعوة إسلامية في العصر الحديث أن تساير اتجاه الحضارة الكريم ، وتأخذ بكل وسائل النهضة الصالحة كما فعلت دعوة الإخوان المسلمين ،

إن لها مدارسها، وأنديتها الرياضية، وندواتها العلمية، وصحفها، ومطابعها، ومستوصفاتها، وشركاتها، وذلك كله دليل فهمها للحياة التي تعيش فيها، ومسايرتها لتطور الفكر الإنساني وتقدم الحضارة في مختلف نواحيها.

ثالثاً ـ أنها شاملة: أي أن دعوة الإخوان المسلمين لا تقتصر في إصلاحها على ناحية في المجتمع دون ناحية، بل هي تدعو إلى إصلاح العقيدة كما تدعو إلى إصلاح الخلق، وهي تحاول إصلاح العامل كما تحاول إصلاح العالم، وهي تكافح فساد السياسة والحكم كما تكافح فساد الأسرة والمدرسة، وهي تهتم بالمصنع كما تهتم بالمسجد، وهي تعنى بالقرية كما تعنى بالمدينة.

**مظاهر الأوضاع السيئة في مجتمعنا:**

١ ـ فساد العقيدة: فقد طمست آثار العقيدة الإسلامية الصافية التي كان عليها رسول الله ﷺ وصحابته والسلف الصالح من بعدهم، وهي العقيدة التي حررت العقول من آثار الخرافة، وحررت القلوب من أوضار الشهوة، وحررت النفوس من مظاهر البلادة، فإذا المسلم الأول من أوسع الناس عقلاً، وأطهرهم قلباً، وأكرمهم نفساً، وإذا المجتمع عزيز كريم لا أثر فيه للخرافة ولا للجهالة ولا للكسل والغفلة، وعقيدة المسلم اليوم قد اعتراها من الفتور والجهالة، والخرافات ما جعلها باهتة عاجزة عن رفع مستواه الفكري والنفسي والاجتماعي، فلا بد من العودة إلى الإسلام كما جاء به كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وكما فهمه السلف الصالح فكانوا به خير أمة أخرجت للناس.

٢ ـ فساد الأخلاق: فقد أصبح المجتمع يئن من هذا الانحراف الشائع في أخلاق الجماهير على اختلاف درجاتها في العلم والمكانة. إن انحراف الأخلاق ليبدو في السياسيين كما يبدو في التجار، ويشيع في المتعلمين كما يشيع في الجهال، وينتشر في الفقراء كما ينتشر في ذوي الغنى واليسار، ولا تجد إنساناً مهما كان دينه وثقافته ومكانته إلا وهو يشكو لك من فساد الأخلاق وخراب الذمم والاستخفاف بالمثل الأخلاقية العليا.. وما عهدنا في التاريخ قديمه وحديثه أمة عزت وكرمت وسادت إلا باستقامة أخلاقها، ولا أمة انهارت وضعفت واندثرت إلا بانهيار أخلاقها.

٣ ـ فساد النظم: إن الأنظمة التي نُحْكَمُ بها ونتفيأ ظلامها، هي أنظمة فاسدة في مجموعها، وبذلك كثرت المظالم الاجتماعية، واستشرى فساد الحكم، وساء جهاز الدولة، وضعفت العلاقات بين أفراد المجتمع بعضهم ببعض، وازدادت الجرائم زيادة تدعو إلى القلق والألم.

٤ ـ ضعف الروابط الاجتماعية: ونعني بذلك هذه العصبيات القاتلة التي انتشرت في مجتمعنا، فمن عصبية للعائلة إلى عصبية للحي، إلى عصبية للبلد، إلى عصبية للإقليم، إلى عصبية للجنس، وكلها عصبيات جاهلية حمقاء.

٥ ـ اضطراب الحالة الدولية: العالم كله يعيش في قلق وخوف.. حربان عالميتان أكلتا الأخضر واليابس خلال ثلاثين سنة فقط من تاريخ الإنسانية، بلغت ضحايا الحرب العالمية الثانية فقط (١٨) مليون نسمة، وهاهو العالم اليوم يتملكه الرعب من أن يكون على أبواب حرب عالمية ثالثة تقوم فيها القنابل الذرية والهيدروجينية بدور السلاح الأول فيها، فإذا بمستقبل البشرية كلها مهدد بالخراب والفناء.

دعوة الإخوان ضرورة:

وإذا عرفت خصائص دعوة الإخوان المسلمين كما أو ضحناها لك، وعرفت هذه الأوضاع السيئة التي نعيش فيها، استطعت أن تعتقد معنا بأن دعوة الإخوان ضرورة لا بد منها.

هي ضرورة دينية.

وضرورة اجتماعية.

وضرورة وطنية.

وضرورة قومية.

وضرورة إنسانية.

ثم انطلق يشرح هذه الضرورات شروحاً علمية واقعية نافذة في الصميم لا السطوح، فهي جديرة بأن تسمى دعوة الشعب كله.

هي دعـوة الفلاح والعامل والتاجر والأسـتاذ والتلميذ والمسـلم وغيـر المسلم؛ هي لهؤلاء جميعاً، تحقق السعادة لهم بلا استثناء، وهي أرفع وأعلى من أن تكون دعوة لطبقة معينة، أو مذهب معين، أو أمة خاصة، هي الرحمة التي أرادها الله برسالة رسوله ﷺ حين خاطبه بقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فمحاربتها باسم القومية طعن للقومية وجهل بها، ومحاربتها باسم الوطنية أذى للوطن وتجريد له من أقوى أسلحته، ومحاربتها باسم التسامح تعصب ذميم ضد الإسلام دين الحب والتسامح، وتعصب على المسلمين أكرم أمة في التاريخ حكمت فكانت في حربها مع أعدائها أرحم وأكثر إنسانية من الأمم المتحضرة اليوم في معاملتها لأصدقائها في السلم، ولمعارضيها في الحكم، وصدق الله إذ يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وفي البحث الرابع: (أعمال جماعة الإخوان المسلمين) قال:

تنقسم أعمال الجماعة إلى ثلاثة أقسام رئيسية:

أ ـ الإصلاح الفكري والثقافي والإسلامي.

ب ـ الإصلاح الاجتماعي.

جـ ـ الإصلاح السياسي.

**أ ـ في ميادين الإصلاح الفكري والثقافي والإسلامي:**

١ ـ إصلاح العقيدة:

كان أول ما عنيت به الجماعة إصلاح العقيدة الإسلامية، مما علق بها من آثار الجهالات والخرافات، فأعلنت للناس أن العقيدة الصحيحة هي التي توجه صاحبها إلى الله في كل حركة وسكنة، حتى يعتقد أنه وحده الذي يجب الخضوع له، والتذلل لجنابه، أما ما عدا ذلك من أصنام وزعماء وأقوياء، ما عدا ذلك من جـاه ومال ولذة وشهوة، فإنما هي معبودات باطلـة تذل النفوس وتفسـد المجتمع وتشل كل إنتاج صالح وتقدم مفيد.

٢ ـ تحديد مفهوم الإسلام:

ثم اتجهت الدعوة بعد ذلك إلى إحياء الإسلام الصحيح في نفوس المسلمين، فلقد كان جمهورهم يفهمون الإسلام عبادات ظاهرة لا تهذب نفوسهم ولا توجه أعمالهم، كما كانوا يفهمون الإسلام بعداً عن الحياة وركوناً إلى الكسل، وتخلياً عن الدنيا، وترك أهل الشر يعيثون في الأرض فساداً دون أن يحملوا على الصلاح والاستقامة، ومن المؤسف أنه مع هذا المفهوم السيِّئ للإسلام في نفوس المسلمين كانت هناك روح تعصبية عمياء تسيء إلى جمال الإسلام وسماحة تعاليمه، فكان تعصبهم له تعصب وراثة وجهل، لا تعصب فهم وحب وإقناع، فجاءت الدعوة تبين للمسلمين أن حقيقة الإسلام في ذاته، سماحة في التعامل، وصدق في القول، ورغبة في نفع الناس جميعاً، ثم نظام شامل لشؤون الحياة، يصلح الفرد والأسرة والشعب والحكومة، ولا يكون المسلم مسلماً كاملاً يتقبل الله إسلامه حتى يؤمن بهذه الحقيقة، ويطبق الإسلام على نفسه وأسرته، ويسعى ليكون معمولاً به في شتى نواحي الحياة الاجتماعية، فليس من الإسلام في شيء أن تكون الدولة في معزل عن الإسلام، لا تنفذ أحكامه، ولا تقيم تشريعه، وليس من الإسلام في شيء هذه المظالم الاجتماعية القائمة، وهذا التباين الفاحش في المعيشة والثروة، ومن أجل ذلك كان شعار الإخوان المسلمين:

«الإسلام دين ودولة، مصحف وسيف، مسجد ومدرسة، قانون وآداب، عدالة وإخاء، مادة وروح، دنيا وآخرة».

٣ ـ تحرير التعليم من قيوده:

وكان طبيعياً أن تتجه الدعوة إلى إصلاح روح التعليم، فلقد طغى الاستعمار في البلاد الإسلامية على روح التعليم وأهدافه، وجعل من المدارس آلة لإخراج موظفين في دواوين الدولة، وشوّه الحقائق الثابتة عن تاريخ الإسلام وتشريعه وحضارته، فأعلنت الدعوة وجوب تحرر التعليم، من آثار الاستعمار وتوجيهه، بحيث يكون الهدف منه إنشاء جيل مؤمن قوي منتج، يبني مجد أمته على أسس من

الإيمان والعلم الناضج، والأخلاق النبيلة، ويزن الحقائق التي تلقى إليه بميزان البصيرة النافذة، والمنطق المجرد عن الهوى، والاستقلال العلمي التام.

**ب ـ في ميادين الإصلاح الاجتماعي:**

٤ ـ تبني حركة العمال.

٥ ـ إنشاء مدارس العمال.

٦ ـ إنشاء المدارس الابتدائية والثانوية.

٧ ـ إقامة الأندية الرياضية: وساهمت الدعوة في تقوية أجسام أعضائها، تنفيذاً لما يطلبه الإسلام من تهيئة الأجسام لحمل الواجب، ففي أكثر مراكز المحافظات أندية رياضية قوية، تعنى بمختلف وسائل الرياضة وأنواعها، وأقوى أندية الإخوان الرياضية نادي فتيان بدر في دمشق لكرة السلة، والنادي الرياضي في باب الجابية، والنادي الرياضي في الميدان، ونادي القادسية في حمص، والنادي الرياضي في اللاذقية... إلخ.

٨ ـ الفتوة:

والفتوة هي العصب الحساس للدعوة، لأنها المدرسة التي تخرج للأمة جيلاً قوياً مؤمناً تملؤه الرجولة، وتشيع في جنباته روح التضحية والطاعة والنظام، وفي كل مركز من مراكز الإخوان في المحافظات، وفي أكثر فروع الإخوان في القرى والأقضية، فرق للفتوة تتدرب على الأعمال الرياضية، وتقوم بمختلف الرحلات، ولها في كل سنة معسكر عام يجتمع فيه فتيان الإخوان أياماً متتالية، وأهم فرق الفتوة الآن هي: في حمص وحلب ودمشق، وحماة وإدلب ودير الزور وبرزة والمزة.

٩ ـ رفع مستوى القرية:

وقد وجهت الدعوة عنايتها إلى القرية، وعملت على رفع مستوى الفلاح فيها، فأخذت تطالب بإنصاف الفلاح ورفع مستواه، وتحقيق العدالة الاجتماعية في محيطه، وقد عملت الكثير له.

١٠ ـ الدعوة إلى العدالة الاجتماعية، والعمل من أجل تحقيقها.

١١ ـ أعمال التعاون الخيري:

تأسست لجان في كل مركز لجمع الإعانات والتبرعات من أعضاء الجماعة أو أصدقائهم، وتوزيعها على المحتاجين من المرضى والمنقطعين، ورفع مستوى المعيشة لبعض العائلات الفقيرة.

١٢ ـ القضية الوطنية في سورية:

لقد حرص الإخوان المسلمون أن يساهموا بقسطهم من النضال الوطني رغم قلة وسائلهم وحداثة نشأتهم حين وقوع العدوان الفرنسي الأخير على سورية، فقد وقفوا وقفة رائعة أثناء حوادثه في كل من دمشق وحمص وحماة وحلب وغيرها من المدن السورية، إذ كانت فتوتهم تحمل الطعام والسلاح إلى جنود الدرك، وتنقذ الجرحى من الدرك والمساجين، وتحملهم إلى مقرها تحت وابل الرصاص والقنابل، كما كانت مراكزهم مبعث حماس الجماهير في مقاومة العدوان الفرنسي، وكان أعضاؤهم في مقدمة المناضلين من أبناء الشعب، فاستشهد منهم من استشهد وجرح من جرح.

ولما تم جلاء الاستعمار عن سورية، ابتدأ نضالهم الوطني في الدعوة إلى إقامة حكم صالح يزيل مساوئ الاستعمار، فوجهوا النصح إلى الحكومات الوطنية المتعاقبة، وقاوموا كل انحراف عن الخطة الوطنية المثلى في الحكم والإدارة والسياسة، ولم يجاملوا في ذلك رئيساً ولا حكومة ولا زعيماً ولا كبيراً، ولذلك فلن يتساهل الإخوان المسلمون أبداً في محارباً كل حركة تحاول أن تقضي على الحكم الشعبي الجمهوري الدستوري في سورية.

١٣ ـ قضية فلسطين:

أما قضية فلسطين فنستطيع أن نؤكد بأن هيئة أو حزباً أو جماعة في بلادنا لم تساهم بنشاط عملي شعبي واسع في سبيل نصرة فلسطين وإنقاذها، كما ساهم الإخوان المسلمون.

١٤ ـ حركتنا السياسية في سورية :

ليس الإخوان المسلمون حزباً سياسياً بالمعنى المفهوم من كلمة (الحزب) في عرف الناس وإنما هم دعاة إسلام آمنوا به على أنه رسالة الإنقاذ والتحرر والقوة والحضارة، واعتنقوها على هذه الأسس، ونادوا بها في الناس بهذا المفهوم، ونذروا أنفسهم لتحقيقها في المجتمع كرسالة سامية لأبناء الوطن جميعاً، وبذلك لم يسعهم إلا أن يساهموا في الحركات السياسية، لا غاية يسعون إليها، بل وسيلة لتحقيق فكرة الإسلام التي آمنوا بها.

ومند سنة ١٩٤٧م تجلى نشاط الإخوان في الميدان السياسي بمساهمتهم بالانتخابات لتلك السنة، ومقاومتهم للحكومات والأحزاب التي ابتعدت عن تمثيل الشعب في أهدافه ومثله العليا، ورغم مابذل يؤمئذٍ ضد نشاطهم الانتخابي من مال ورجال وسلاح، فقد نجح ثلاثة نواب منهم، وأدوا واجبهم ضمن الدائرة المحكمة التي أحاطهم بها خصومهم.

ثم ساهموا في انتخابات سنة ١٩٤٩م للجمعية التأسيسية، ونجح عدد منهم ساهموا في وضع الدستور، وصبغوه بالصبغة العربية المسلمة التي هي طابع هذه الأمة، مما جعل دستورنا السوري أول دستور عربي إسلامي يحوي من النصوص الإسلامية، ما يجعل الإسلام مرعي الأحكام، موفور الحرمة، ذا أثر واضح في توجيه الشعب والحكومات وجهة صالحة قوية، لو وجدت الأيدي الجريئة المخلصة لتطبيق تلك النصوص.

وكان نواب الإخوان في الجمعية التأسيسية وفي المجلس النيابي مثلاً للسياسة الوطنية الصادقة، البعيدة عن الحزبية العمياء، فقد أيدوا كل عمل صالح، وعارضوا كل اتجاه ضار، وحلُّوا كثيراً من أزمات الحكم، وكانوا واسطة خير بين هيئات المجالس وأحزابه، ولا يزالون حتى الآن يقومون بواجبهم متحملين أنواعاً من التحدي والاستفزاز والافتراء والتهجم، راضين أن يكون نصيبهم من عملهم ثواب الله ورضاه، وخدمة الشعب وإنقاذه، والسير بالوطن في طريق مستقيم لا اعوجاج فيه ولا التواء.

## ١٧ ـ الصراع بين العقل والقلب

هذا الكتيب هو حديث من جملة أحاديث كان يحدث السباعي بها بعض إخوانه، في جلسات خاصة، هي حديث الروح للروح، وحديث القلب للقلب، كانت سبحات روحية، تحليقات في فضاء الدعوة، يسمو بها عقله الذكي، ويتسامى بإخوانه الذين يعدهم ليكونوا دعاة وعاة، يستعصون على المادية الطاغية، ويكون الواحد منهم عصياً على المنحرفين والمستبدين في حالي الرغب والرهب.

هذا الكتيب هو الحديث الأول منها، ونحن نتطلع إلى بقية هذه الأحاديث، لتكون زاداً للدعاة في هذه المهامه، ففيها تزكية للنفوس، وتصفية للقلوب، وتنقية للمشاعر، وصقل للأرواح، وفتح آفاق رحيبة للعقول.

وكما نرجو أن تظهر هذه الأحاديث الروحية في كتاب أو كتيبات، نرجو أن تظهر في أشرطة، ليسمع الناس، لتسمع الأجيال التي لم تسمع صوت السباعي، لتسمع صوته العذب، ولتقرأ ما في ذبذباته من إخلاص، وسمو، وصدق، فما سمعنا أصدق لهجة، وأخلص إخلاصاً، وأسمى سموا من السباعي القائد المربي الحكيم.

إنه حديث ارتجالي، كهذه الأحاديث التي نتلقاها أو نلقيها في (الأسرة) الإخوانية، ولكن. . شتان ما بين حديث وحديث، ما بين موجه وموجه، ما بين مرب ومرب، ما بين قائد وقائد. . حديث مرتجل، ولكنه عميق، فيه خلاصة لفكر جوّاب، لفيلسوف حكيم، لمثقف واسع الثقافة، واسع الاطلاع على حياة الأفراد والشعوب والأمم والحضارات، لداعية ذي خبرة في الحياة، قادر على استخلاص الدروس والعبر منها.

تحدث السباعي عن أثر القلب والعقل في حياة الأفراد، ثم في حياة الجماعات. وقد بدأحديثه على السجية بتعريف العقل والقلب فقال:

«هذه الحياة صراع بين العقل والقلب، ذلك هو تاريخ الإنسان، وتاريخ الجماعة، وتاريخ الشعوب. وما العقل في حقيقته إلا ميزان يوازن في كل أمر

بين خيره وشـره، بين نفعه وضرره. أما القلب، فهو ذلك الميل والاتجاه إلى فعل الشيء أو تركه، فالعقل ميزان، والقلب هو الموجه الأول لأعمال الإنسان».

وإذا كان العقل مناط التكليف في الشرائع كلها، فإن آيات القرآن العظيم تصب اللوم على القلب لا على العقل، والقرآن يصف القلب أحياناً بالسلامة، وأحياناً بالضلال والعمى والقسوة «فإذا كان العقل مناط التكليف وجوداً وعدماً، فإن القلب هو مناط الشقاء والسعادة، والنجاة والهلاك».

والقلب ـ عند السباعي ـ هو الميل والعاطفة، والنفس، والروح، والقلب.

وأهمية القلب ـ عند السباعي ـ ناجمة من «أن هذه الإنسانية ليست دائماً وليدة العقل، بل نحن نعيش في هذه الحياة بفضل القلب».

وضرب على ذلك مثلاً بحياة الإنسان الفرد الذي كان ينبغي له أن يكره هذه الحياة، لما فيها من متاعب من أول لحظة يتخلق فيها الإنسان، إلى أن يرحل عنها، ولكننا جميعاً نحب الحياة مع كل آلامها، وشقائها، وتعاستها «إذن نحن نتخلى عن حكم العقل في حبنا للحياة، ونسير في حب الحياة وراء قلوبنا وعواطفنا وميولنا وأهوائنا».

وضرب مثلاً بهذا الطعام الذي يأكله الإنسان، والمتاعب التي يتحملها الإنسان من أجل الحصول عليه، والتلذذ به لدقائق معدودات، ثم يذهب أكثره فضلات.

وبالمرأة العاقر التي تعد نفسها شقية في هذه الحياة لأنها لم تنجب، وبالأب الذي يشقى في سبيل زوجته وأولاده، وبالإنسان الذي يضحي بحياته ليسلم له شرفه، وبالكريم الذي يفني ماله الذي تعب وشقي في جمعه، ليقدمه للآخرين، ومع ذلك، فالكرم صفة محمودة لدى كل الناس.

وهذا يدل على أننا لا نسير دائماً وراء العقل، وإنما نسير في أكثر الأحيان وراء القلب والعاطفة ونحن سعداء، ولو لا تغليب القلب والعاطفة على العقل، لما عاش الإنسان على وجه الأرض.

وبالمقابل، كثيراً ما نجد انتصار القلب والعاطفة على العقل، يؤدي إلى شقاء ما بعده شقاء، وضرب مثلاً بإنسان حين يريد أن يسكر، ينهاه عقله عن السكر، لأنه مضر، ولكن عاطفته، وقلبه، وهواه.. هي التي تدفعه إلى السكر، وبذلك يشقى. وكذلك المقامر، وأكل الطعام الذي منعه الطبيب من أكله لضرره، والمجرم..

وهذا الذي نراه لدى الأفراد، نرى مثيله لدى الجماعات، ففي حياة الجماعات أمور تفعلها، وتخالف بها عقلها، ولكنها راضية سعيدة بها، مطمئنة إليها، كالجهاد في سبيل الله، أو الوطن، أو الكرامة، أو الاستقلال، فالجهاد أن تندفع الأمة لتقدم شبابها دفاعاً عن الوطن، والحق، والدين، والكرامة، وهذا في حكم العقل سخافة.. لماذا يقتل الإنسان نفسه ليعيش مجتمعه؟ ولكنه في نظر القلب فضيلة.. وكذلك الأمر في الحكم والحكومة، وفي السياسة، فلو حكّم السياسي عقله لقال له: لماذا تتعب نفسك؟ لماذا تشقي زوجتك وأولادك؟ لماذا تعرض نفسك للسجن؟ لماذا تسجن والناس أحرار؟ لماذا تشرد والناس الذين شردت من أجلهم مقيمون في أوطانهم؟ هم أحرار وأنت سجين. هم أحياء وأنت تقتل. إن هذا منتهى الجنون في حكم العقل.. ولكن السياسيين المصلحين لم يستجيبوا لحكم العقل، بل استجابوا لحكم القلب الذي يطلب من كل من آتاه الله غيرة في أمته، أن يقوم بواجب الإصلاح والدعوة، وفي استجابتهم هذه لنداء القلب، كل الخير للقلب وللجماعة وللمصلحة.. وكذلك المخترعون الذين يقدمون كل ما يملكون في سبيل تجربة علمية، ماتوا فقراء من أجل الإنسانية.

فالجماعات والحضارات والأمم مدينة في نشوئها وتطورها وتقدمها للقلب والعاطفة، أكثر من العقل، ولو استجاب المصلحون لنداء العقل المجرد، لما قامت حضارة، ولما استقامت أمة، ولما نشأت دولة، ولما انتفع الناس بمبتكرات العلوم والمكتشفات الحديثة ويقلب السباعي صفحة أخرى، فيجد أن اتباع العاطفة والقلب، جر على الإنسانية كثيراً من الشقاء، ويضرب مثلاً بتشرشل الذي ساند الصهيونية، وفاخر بأنه نصير لها وداعم. لو استجاب تشرشل لنداء

عقله، لنهاه عن أن يكون نصيراً لحركة باغية، مجرمة، ولكنه استجاب لنداء قلبه، لأنه نشأ في وسط صهيوني، وقد شقيت الإنسانية بموقفه العاطفي هذا.

وكذلك هيئة الأمم، وأمريكة بالذات التي تحارب في أروقة هيئة الأمم، كي تمنع بحث قضية فرنسة في مستعمراتها في المغرب العربي، حتى لا تغضب فرنسة عليها.

والإنسانية اليوم تشقى بتغليب العاطفة والهوى على العقل، وضرب مثلاً بهذا الانحلال الخلقي، وهذا التفكك الاجتماعي، وما يجرانه على البشرية من شقاء.

وهكذا.. قد يكون انتصار القلب والعاطفة خيراً للإنسانية، وقد يكون شراً. ويتساءل: ماذا ينبغي أن نعمل إذن؟ ويجيب:

ينبغي أن تتجه جهود المصلحين جميعاً إلى أحكام هذه العاطفة في القلب.. أن يضبط هذا القلب، حتى يتجه اتجاهاً كريماً حسناً، يكون في انتصاره انتصار للخير، فشقاء الإنسانية اليوم ليس لنقص العلم والعقل، فالعلم اليوم أكثر منه في أي وقت مضى، والعقل اليوم، ليس أوسع منه، وبهذا لا يستطيع أحد أن يزعم أن الشقاء الذي تعانيه الإنسانية اليوم شقاء عقل ناقص، أو علم ناقص.. الشقاء الذي تعانيه اليوم، شقاء قلب مريض، أو قلب ميت.

وقارن بين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وبين ترومان الذي سمح له ضميره ـ إن كان له ضمير ـ أن يشرد مليوناً من الأنفس الفلسطينية، حتى إذا شكا هذا المليون إلى هيئة الأمم، ولّى (ترومان) ضاحكاً على هذا المليون المشرد الذي اغتصب اليهود وطنه، ولم يعتبر تشريده ظلماً ولا عدواناً.

عمر خير للإنسانية من ترومان، مع أنه ـ عمر ـ كان أقل علماً وثقافة، ورقياً مادياً من ترومان، ومع ذلك عاقب أمير مصر وابنه، لأن ابنه اعتدى على صبي قبطي.

فالإنسانية سعدت بالعلم القليل، مع القلب الكبير، وشقيت مع العلم

الكثير والقلب الميت. وضرب مثلاً آخر بصلاح الدين الأيوبي الذي كان أقل ثقافة من كل ملوكنا ورؤسائنا، ولكنه كان أبر بالمسلمين، وأجدى لتاريخ الإسلام، منهم جميعاً، فقد أنقذ المسلمين من الاستعباد إلى قيام الساعة، ولما مات، لم يخلّف لأولاده وورثته درهماً ولا ديناراً، ولكنه خلّف في كل بلد أثراً من آثار البر، من مستشفى، أو مدرسة، أو مسجد، أو ملجأ.

المشكلة أن حضارة اليوم صححت العقل، ولكنها أفسدت القلب.. قوّت العقل، ولكنها أضعفت القلب... وسّعت آفاق العلم، ولكنها ضّيقت آفاق فضائل النفس والروح والقلب.

«من أجل ذلك، كنا، نحن أبناء هذه الحياة وأبناء الإسلام، جديرين بأن نفتش عن السعادة لا في آفاق الذين اتسعت علومهم، وماتت قلوبهم، بل في آفاق الذين اتسعت قلوبهم وعقولهم معاً».

الإسلام يسعى إلى إيجاد القلب الحي السليم في كل إنسان، وتزكية النفْس هي أول ما يطلبه الإسلام.

إننا لا نجد في التاريخ الإسلامي صاحب قلب كبير، إلا وهو صاحب عقل كبير، ولكننا نجد في التاريخ كثيرين، كان الواحد منهم صاحب عقل كبير، ولكنه لا قلب له، وهذا شيطان يوسوس للناس بالفتنة والفساد والضلال. من أجل هذا ينبغي أن نحرص على حياة قلوبنا وسلامتها، لأنها مبعث الفضائل... العقل الكبير يستحق إعجابك، ولكن صاحب القلب الكبير يستحق حبك وإجلالك.

ثم توجه إلى الإخوان فقال:

«عليكم ـ أيها الإخوان ـ أن تعنوا عناية كبيرة بهذا القلب الذي حياته حياة لكم وللناس، والذي موته ومرضه، موت ومرض لكم وللناس. إن دروسنا المقبلة ستتناول هذا القلب، إن شاء الله: أمراضه، وعلله، وعلاج هذه الأمراض، والوسائل التي بها نستطيع أن نضمن هذا القلب الكبير اليقظ الحي الذي لا ينبثق

منه إلا كل خير . . وعلى كل واحد منّا، أن يعزم عزماً أكيداً على أن يرجع إلى قلبه ليطهره، ويصفيه، ويبعث الحياة فيه، ولذلك مقدمات ثلاث نستطيع الآن أن نحصل عليها، إذا صممنا وأردنا أن نعيش بقلوب حية :

أولاً : أن نذكر الله وسلطانه، وعظمته. وهذا يخلّص قلوبنا من كثير من الأمراض، والأوهام، والأغيار.

ثانياً : أن نذكر الموت، وقربه، والوقوف بين يدي الله عز وجل للحساب على ما نقدمه.

ثالثاً : أن نجدد التوبة الآن، وشرائط التوبة : الندم على الماضي، والعزم على أن لا تعود، وإرجاع الحقوق إلى أصحابها، فالتوبة والإنابة إلى الله، أول الطريق إلى تصحيح القلب، وتصفيته.

هكذا كان السباعي يوجه إخوانه وتلاميذه، ويربيهم، ويسعى إلى أن يكونوا أصفياء أنقياء أتقياء مثله.

* * *

# الملاحق

## تحسسه بآلام الجماهير

«من كلمة ألقاها في حفل عام في مكتب الجبهة الاشتراكية الإسلامية بدمشق بتاريخ ٨/ ١١/ ١٩٤٩ م».

هناك شيء هام في السياسة الإصلاحية التي كانت تسير عليها الدولة من قبل، فلقد كانت العناية بالمدن الكبرى أكثر من المدن الصغرى، والعناية بالمدن أكثر من القرى، والعناية بأحياء الأغنياء أكثر من أحياء الفقراء.. ولا أريد أن أضرب الأمثال ولكن أسألكم: هل تجدون العناية بأحيائكم أنتم يا سكان الشاغور والميدان وباب السريجة والسمانة والعقيبة كما تجدون العناية بشارع الروضة وأبي رمانة؟ وأسألكم يا سكان القرى: هل طرقكم كلها معبدة؟ هل تنالون نصيبكم من ميزانية الأشغال العامة؟ هل تنعمون جميعكم بالكهرباء؟ هل تشربون جميعاً الماء النقي؟ هل تجدون المدارس الكافية؟ فلماذا هذا التفاوت؟ لماذا هذا الإصلاح الذي يدلل فريقاً ويحرم جمهوراً؟.. لماذا تبني الدولة لأهل المدن المدارس أو تستأجرها لهم، وهي في القرى تجبر الفلاحين على بناء المدارس أو استئجارها؟ ولماذا يكون المعلمون في مدارس المدن موفورين كاملين في كل صف وفي كل مدرسة، وأكثر مدارس القرى لا توجد في المدرسة ذات الصفوف الثلاث إلا معلم واحد؟.

وهناك ناحية أخرى وهي أننا ننفق على إصلاح أمور ثانوية بمقدار ما نهمل إصلاح أمور ضرورية.

لقد أراد بعضهم في المجلس النيابي السابق أن تخصص الدولة (٤٠) ألف ليرة لإصلاح الموسيقى وتخريج عدد من الفنانين ونحن لا ننكر حاجة الموسيقى

إلى الإصلاح ولكن أين كنا نحن يومئذ؟ كنا نخوض معركة فلسطين أو نتأهب.

ولقد كانت رغبة الشعب وما تزال حتى الآن أن نهيئ الجندي والبندقية والخرطوشة قبل أن نهيئ العازف والعود والكمان. إن الإصلاح يجب أن يبدأ بالضروري قبل الكمالي، وبالفقير قبل الغني، وبالقروي مع المدني، وعلى جميع أبناء الشعب وجميع الأحياء وجميع المدن والقرى لا على فريق دون فريق ولا على طائفة دون طائفة.

## مواقف الكرامة

«من كلمة ألقاها في مجلس النواب في ٣/ ٨/ ١٩٥١م بمناسبة حوادث الحدود».

إننا شعب مصمم على أن يموت، أو أن ينال حقه بيده، فهو قد كفر بكل عدالة تأتيه من الخارج، لقد كفر بكل عدالة تأتي من أولئك الذين يتوسدون أرائك مجلس الأمن وهيئة الأمم والذين لا يستوحون ضمائرهم وإنما يستوحون أنانيتهم.

وبهذه المناسبة أعلن ما كررناه من قبل، أننا يجب أن نفكر في علاقاتنا بالمعسكر الغربي، إن من واجبنا أن نفكر بعلاقاتنا بهذه الدول، إننا جديرون بأن نصون كرامتنا إزاء هؤلاء الذين يستهزئون بكرامتنا وبإرادتنا، ولا أدري إلى متى نسير بإرادتهم ومتى نفكر بالخروج على تلك الإرادة؟.

وقد يقال إننا ضعفاء، وإننا لا نملك من الأمر شيئاً، ولكن لأن نموت ونحن نلطم الذي يلطمنا خير لنا من أن نموت ونحن نقدم خدّنا لمن يريد أن يلطمه، ورقابنا لمن يريد أن يتحكم بها، ولذلك أرجو من اللجنة السياسية التي سوف تجتمع عما قريب، وأرجو من الجامعة العربية إذا كان في الأموات رجاء، أرجو من هؤلاء أن تستيقظ ضمائرهم بعد الآن، وأن يستيقظ فيهم الشعور الحي، وأن يسمعوا صدى إرادة هذه الأمة وشعورها في مختلف أقطارها، أرجو أن يستيقظوا على هذه الصرخات.

من الواجب أن نفكر بعد الآن كيف ينبغي أن تكون علاقاتنا مع هذه الدول فلا نجاملها، ولا نجعل مصيرنا مرتبطاً بها وإن كانوا يظنون أن في هذا التعدي ما يرهبنا ويخيفنا، فليعلم العالم أننا شعب لا يخاف الحروب، وأننا أبناء هذا الجيل، قد ولدتنا أمهاتنا على لمعان نيران الحروب وعلى ضوء مدافعها، وعلى بطاح معاركها وبريق أسنتها، ونحن أمة رضعنا حب الحروب من أثداء أمهاتنا فلن تخيفنا الحروب ولن ترهبنا النكبات، وقد تعرضنا في تاريخنا الماضي كثيراً إلى مثل هذه النكبات التي تألبت علينا واستمرت مئات السنين، ثم لم ترهبنا ولم ترجعنا عن عزيمتنا.

وقد وطّنا النفس على أن نرد العدوان مهما كان شأنه، فلا يطمع بنا الطامعون من الدول الكبرى، وليعلموا أنهم في إثارتهم لإسرائيل في هذه الظروف علينا، لا يستطيعون أن يحملونا على الصلح، وإنني أعتقد أنني أعبر عن حقيقة واقعة، وهي أنهم لم يجدوا في هذه البلاد ولا في أي قطر عربي آخر رجلاً واحداً ترضى له كرامته، وترضى له وطنيته أن يرى الصلح مع إسرائيل أو يقبل به، إلا إذا كان معناه الموت، وإلا إذا كان معناه تسليم رقابنا للجزارين الأشرار، إن الصلح مع إسرائيل خيانة وطنية فلا يفكر أحد بأن يحملنا عليها.

## الاستعداد قبل وقوع العدوان

«من كلمة ألقاها في جلسة المجلس النيابي بتاريخ: ٨/ ١٢/ ١٩٥٠».

إن من واجب الحكومة أن تهيئ الشعب للنضال، وأن تعبئ قواه الروحية والمادية، وأن تقوي أخلاقه، وتحارب الميوعة والانحلال في معيشته وسلوكه، حتى يكون وراء جيشه المحارب على الحدود متأهباً لمده بالرجال والعون حين تحتدم المعارك دفاعاً عن شرف البلاد وسلامتها.

إن من واجب الحكومة أن تبدأ فوراً بكل ما من شأنه أن يجعل بلادنا وشعبنا على استعداد لمواجهة كل خطر عالمي أو موضعي ومواجهة كل عدوان برباطة جأش وتمام استعداد، فهل تنوي الحكومة أن تقوم بذلك؟.. وهل يرى دولة

رئيس الوزراء أن الوقت قد حان لمواجهة الأخطار بحزم وجرأة ومثابرة وعزيمة لا تعرف اليأس ولا الملل؟ . .

يادولة رئيس الوزراء ! . . لقد رأينا بأعيننا كيف كانت حكومات هذه الأمة مشغولة عن الاستعداد للأخطار، بتوظيف المحاسيب والأنصار، والتلاعب بالدساتير والقوانين، والانشغال بجمع المال وتوطيد الجاه والخلود في الحكم، حتى إذا فوجئت بالخطر الذي كان يتهيأ له عدونا منذ سنوات لم يكن من أولئك الحكام إلا أن يخدعوا الشعب ببليغ تصريحاتهم، لقد دخلوا الحرب وهم يخدعوننا ويخفون النتيجة إلى أن هزموا . . وصدمنا . . وعندما هزموا وحلت الكارثة بنا . . تواروا عن الأنظار وبعضهم لا يزال باقياً على أرائك الحكم في البلاد العربية، لم تنلهم يد بعقاب ولا محكمة بحساب، ولكنما نالهم شيء واحد، هو لعنة الله، ولعنة هذه الأمة، ولعنة الأجيال الآتية من بعد.

فإذا أردنا يا دولة الرئيس أن ننجو من مثل هذه اللعنات فلنعمل ولنستعد ولنهيئ الأمة لأخطار الحرب المقبلة . . نحن لا نريد إلا أن ندافع عن أنفسنا، فابدأ منذ الآن يا دولة الرئيس بالعمل والاستعداد، جنّد الرجال، ودرّب الشباب، وقوِّ الأخلاق وحارب الميوعة، واحرمنا من بعض مآكلنا وملذاتنا، خذ منا ما تشاء من أموال ورجال. نحن على استعداد لنعطيك ذلك كله على أن يسلم لنا شرفنا، على أن تصان لنا حرياتنا . . على أن لا تلعننا الأجيال كما لعنت الآخرين.

يا دولة الرئيس: أنت وأعضاء حكومتك مسؤولون عن مستقبل هذا الشعب، وعن صيانة حرياته وعن الدفاع عن كرامته، أنتم وحدكم الذين ستحملكم الأقدار نتيجة التفريط في الاستعداد، فحوِّل منذ الآن وزارتك إلى وزارة طوارئ، وابذل ما تستطيع لتهيئ هذه البلاد للكفاح الطويل والنضال المرير، وأخلص لله عملك يؤتك الله ما تستحق من أجر وثواب وتأييد.

* * *

## لن ننساها

في حياة الأمم، كما في حياة الأفراد، فترات من الشدة والقسوة يفر منها ضعفاء الإيمان إلى اليأس، وينهض معها أقوياء الإيمان إلى العمل. . وجراح فلسطين الدامية التي لم تندمل بعد في جسم أمتكم، إن حملت بعض القادة والزعماء على إلقاء السلاح، فإنها يجب أن تحملكم على متابعة النضال والكفاح!.

هذه فلسطينكم!. . أضاعتها الأطماع الجائعة، والشهوات الظامئة، والغفلة المسترسلة، والأحقاد الصليبية الكامنة، ولن تكون فلسطين بعد كل هذه المؤامرات إلا لنا. . نحن العرب. . نحن المسلمين. .

فلسطين لنا:

يوم نجند في سبيلها العزائم والسواعد.

ويوم نحشد لها الإمكانيات والمواهب.

ويوم نحرسها بالسلام الشاكي والإيمان اللاهب.

فلسطين لنا:

يوم نعزم أن نرفع رؤوسنا للسماء. .

ويوم نأبى أن ننهزم وبأيدينا اللواء.

ويوم نقول: (لا) للطغاة الأعداء.

لا تيأسوا. . فاليأس كفر بالله.

ولا ترددوا. . فالتردد مفتاح الهزيمة.

ولا تقفوا. . فالوقوف أول الموت.

يا شباب .

اذكروا فلسطين . . يقظتكم ومنامكم .

واذكروها . . مغداكم ومراحكم .

واذكروها . . في عبادتكم ورياضتكم .

واذكروها . . لأطفالكم وأمهاتكم .

اذكروها .

اذكروها !

فهي قلب وطنكم الكبير الواحد .

اذكروها !

فهي طريق الإسلام إلى عاصمته (مكة) .

اذكروها !

فهي ثغر جزيرتكم التي يربض فيها محمد ﷺ .

يا شباب ! .

اجعلوا لفلسطين ما تملكون من مال، وما ترزقون من مواهب، وما تجدون من وقت، وما تفاخرون به من عرض وعقيدة .

هذا هو طريقكم الجديد إلى وطنكم المفقود .

* * *

# الفَهرس

## الفصل الثاني

## تعريف بمؤلفاته



* * *